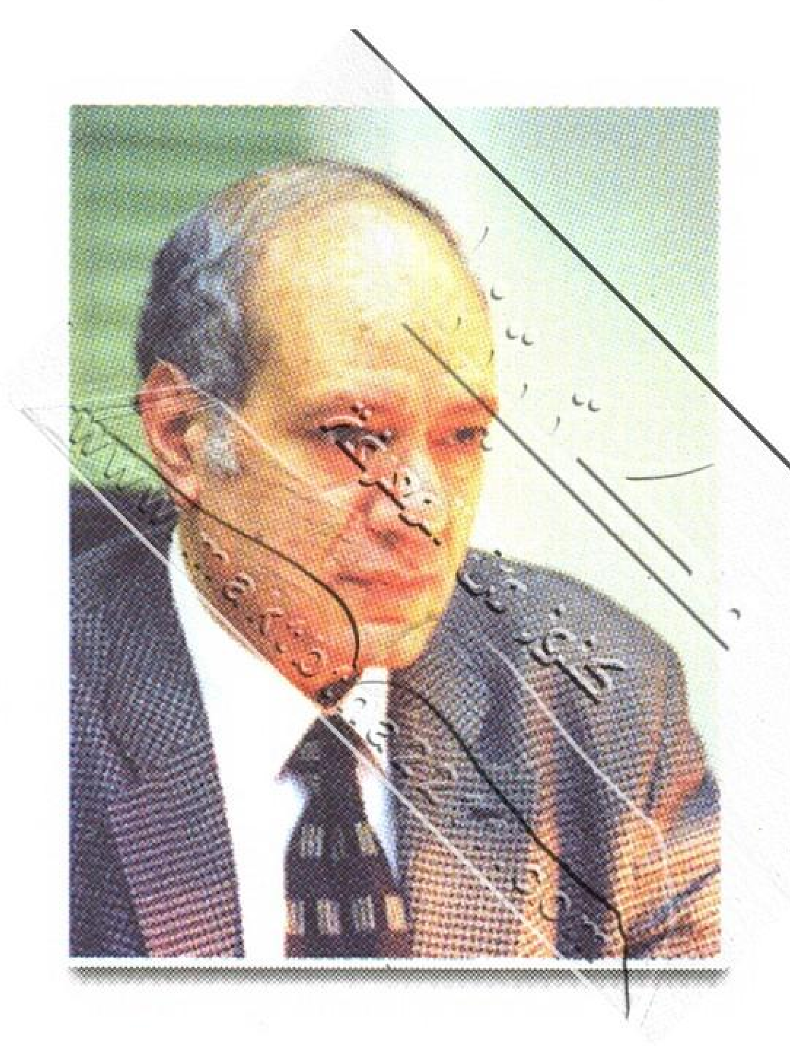

378
A.M.
عبد الوهاب مطاوع
تحيـــة
المســاء
http://www.maktbtna2211.com/
الدار المصرية اللبنانية

تحيــة المســاء




في تاريخ صدور هذا الكتاب ، يكون مؤلفه الأديب الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع ، قد أمضى نحو عشرين عامًا ، منذ بدأ تحرير باب (بريد الجمعة) فى العدد الأسبوعى من جريدة الأهرام .. وهو باب يحرص القراء على قراءته ؛ لما يحتويه من عرض جذاب لمعرفة بعض الصور الحقيقية لما يعانيه بعض أفراد المجتمع المصرى المعاصر - رجالاً ونساءً - من مشاكل وهموم ، تعترض حياتهم الاجتماعية ، أو تعصف بآمالهم الشخصية فى حياة سعيدة خالية من تلك المشاكل والهموم.

ويتلقى الأستاذ عبد الوهاب مطاوع مئات الخطابات من القراء ، الذين يلجأون إليه لحل مشاكلهم وإرشادهم إلى الطريقة المثلى للتخلص من تلك المشاكل والهموم .. ودون ذكر أسماء أصحاب تلك المشاكل ، يقوم الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بصياغة ماورد ذكره فى خطابات القراء بأسلوب أدبى دقيق رقيق ، ويعبر عن كل مشكلة شخصية باعتبارها من المشاكل ، التى تهم المجتمع المصرى ككل، ثم يقول لصاحب - أو لصاحبة - المشكلة الشخصية ماألهمه الله من حل ، تتجلى فيه قدرة المؤلف على التوصل إلى حلول صائبة تقوم على مبادىء وقواعد علم النفس وعلم الاجتماع والقدرة الفائقة على مواساة الحزانى والمهمومين..

* مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
* يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
* صدر له ٤٧ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
* له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتنسنى) ، (والحب فوق البلاط).





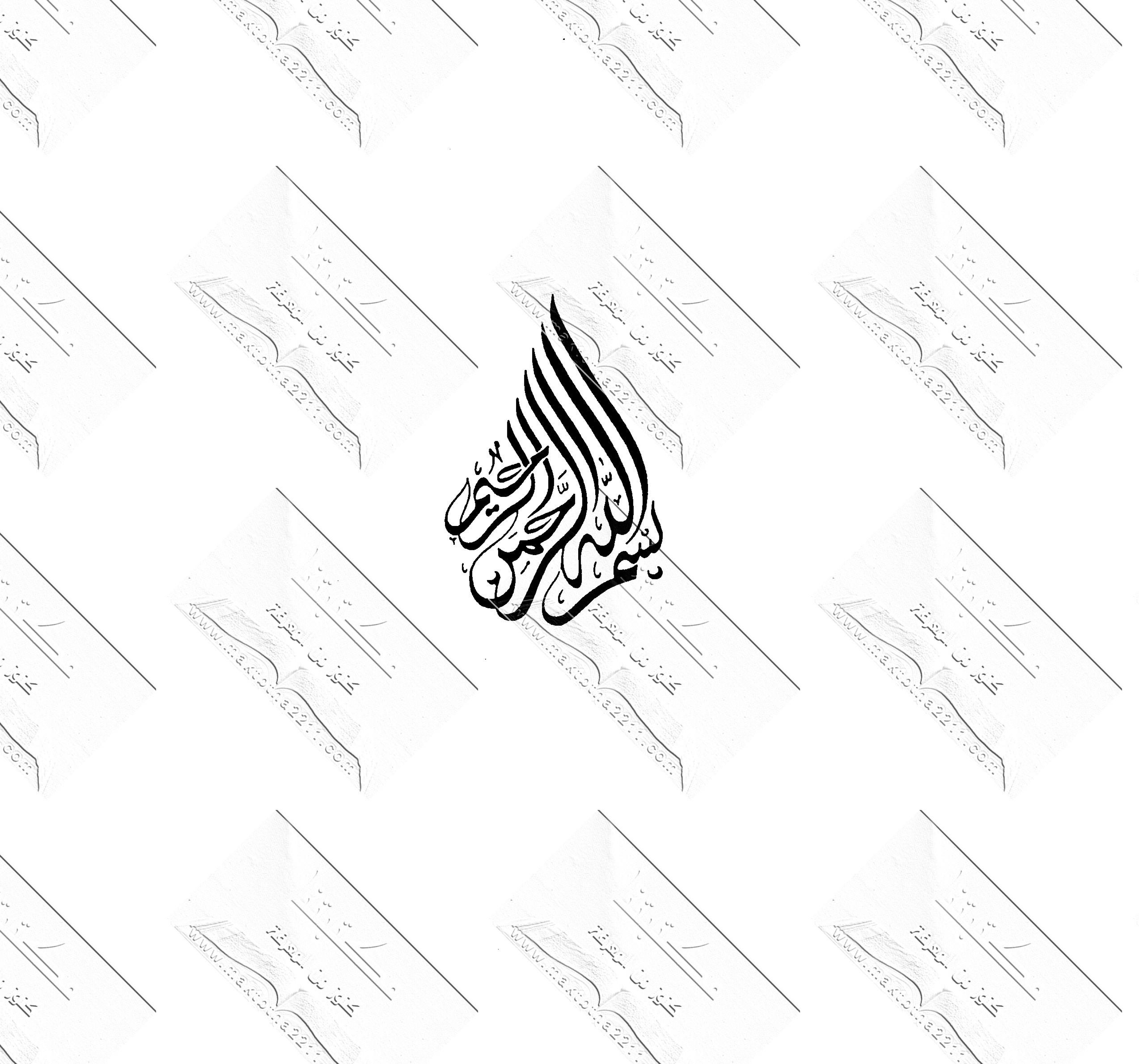

Read it yourself
with Ladybird
Beauty and
the Beast
LEVEL 2
Next



عبد الوهّاب مطاوع

تحية المساء

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حين يصدر هذا الكتاب متضمنًا مجموعة جديدة من القصص الإنسانية الواقعية التى أعرضها أسبوعيًا فى بريد الجمعة بالأهرام، أكون قد أمضيت ٢٠ عامًا على بدء تعاملى مع هموم البشر ومشاكلهم الإنسانية، منذ أولانى القراء ثقتهم الغالية وائتمنونى على أسرارهم وأحزانهم.

وقد تذكرت وأنا أعد مواد هذا الكتاب للنشر الأديب والروائى الفرنسى أونوريه دى بلزاك، ذلك أنه قد راح على مدى سنوات طويلة يكتب فى الصحف الفرنسية فصولاً أدبية، تصور واقع الحياة الباريسية فى زمنه، وينشرها أسبوعًا بعد أسبوع تحت عنوان شامل، هو «الكوميديا الإنسانية»، فاعتبر النقاد هذه السلسلة الطويلة من القصص والصور الأدبية مرآة صادقة لأحوال المجتمع والبشر والقيم السائدة بينهم فى الفترة، التى كتب فيها بلزاك فصوله هذه.

ولقد أصدرت حتى الآن ما يزيد عن ٢٨ كتابًا من هذه القصص الإنسانية التى عالجتها فى بريد الجمعة.. فخطر لى السؤال، وأنا أراجع مواد هذا الكتاب.. ترى ما العنوان الموحد الذى كنت سأختاره لهذه المجموعة المتتالية من الكتب، التى ضمنتها نماذج مختارة من قصص البشر وهمومهم، لو كنت قد فكرت فى ذلك منذ البداية؟ وإذا كانت الصحافة كما

علمونا قديمًا ـ فى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة ـ هى مرآة المجتمع. . فماذا تقدم لنا مرآة بريد الجمعة من أحواله وآلامه وأحلامه؟

وبعد تفكير طويل، وجدتنى أقول لنفسى أنه لو رجعت مياه النهر إلى المنبع من جديد، وهو حلم مستحيل للأسف، لكنت قد اخترت لهذه السلسلة من الكتب عنوانًا شاملاً هو «الدراما الإنسانية». . تشبهًا بسلسلة مقالات وكتب بلزاك، التى صورت أحوال البشر والمجتمع فى عهده، ولكان هذا العنوان قد عبر بصدق عن مضمون هذه القصص والصور الإنسانية، ولكن الأوان قد فات الآن لتحقيق هذه الرغبة. . ولم يبق إلا الأمل فى أن أكون قد أديت الأمانة التى حملنى أياها المهمومون من البشر، حين كتبوا إلىّ بأحزانهم وأفراحهم، وأن أكون قد أخلصت النصح والمشورة لهم، خلال تلك السنوات الطويلة الحافلة بكل غريب وعجيب من أحوال النفس البشرية.

عبد الوهاب مطاوع

أكتب إليك وأنا مشوشة الذهن وضعيفة التركيز فأنا سيدة فى الأربعين من عمرى، تزوجت زواجًا تقليديًا عن طريق الأهل.. لكننى أحببت زوجى بعد ذلك بشدة وسافرنا معًا للعمل بالخارج لمدة عشر سنوات أنجبنا خلالها ولدين، وكان لى نعم الزوج والمحب المخلص، ولم ألحظ عليه طوال ذلك أية عيوب أو لعلى هوّنت دائمًا من شأن أى عيب لمسته فيه كما ينبغى دائمًا للزوجة المحبة أن تفعل مع زوجها، ثم رجعنا إلى بلدنا وعاد زوجى إلى عمله السابق وعدت أنا كذلك إلى عملى، وبدأ هو القيام ببعض المشروعات التجارية إلى جانب عمله فوقفت إلى جواره أشجعه وأحافظ على أمواله حتى اتهمنى البعض بالوصول إلى حد البخل مع نفسى وابنىَّ من أجله، أما هو فلقد كان مهتمًا بالظهور بمظهر رجال الأعمال.. ومن حقه أن يفعل ذلك.. وتحملت هذه الفترة من أجل مستقبل ننعم فيه بجنى ثمار غربتنا وشقائنا ولم أطالبه بالرغم من مشاركتى له فى كل شيء ـ بأن يكتب إحدى الشقق باسمى حين أصبح لنا شقة بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية وثالثة بالساحل الشمالى.

ومضت الأيام بنا وهو يتقدم فى عمله ومشروعاته حتى أصبح من الأثرياء، وبدأت أسمع منه نغمة غريبة لم أسمعها من قبل وهى أننى معقدة لأننى قد تربيت تربية متزمتة وهو لا يريد لابنينا أن ينشآ معقدين مثلى، وأننى لست حريصة على بيتى وابنى، وتلفت حولى أبحث فى نفسى وفيمن حولى عن مبرر لهذه الاتهامات فلم أجد ما يدعوه لمثل هذه الشكوى، فأنا على درجة عالية من الثقافة والتعليم وأقرأ باستمرار وأحرص على الاستفادة بآراء المتخصصين فى التربية.

ثم لاحظت بعد ذلك أن الابنين قد بدآ يسخران من توجيهاتى ونصائحى لهما ويصفانها بتشجيع من أبيهما بالتزمت مع أننى لست متزمتة. . وتواكب مع ذلك أن بدأ زوجى يحكى لى عن زميلة له فى العمل يسىء زوجها معاملتها إلى حد الضرب والإهانة، ويحثنى على دعوتها لزيارتنا دون زوجها واتخاذها صديقة لى لكى نخفف عنها مأساتها، واستجبت لرغبته وبدأت أدعوها للخروج معنا وشجعنى على ذلك أنها لا تتمتع بأى مسحة من الجمال ومتزوجة ولديها ولدان فى مثل عمر ابنىَّ.

وبعد ذلك بدأت ألاحظ كثرة غياب زوجى واختلاقه الأعذار الكثيرة للتأخر فى الخارج، كما كثرت الخلافات بيننا

حول ذلك.. وفى أحد هذه الخلافات فوجئت به يصارحنى فى هدوء غريب بأنه قد تزوج من أخرى وجد معها نفسه.. وأنه قد جاء الوقت الذى يزيح فيه هذا السر عن صدره لكى يستريح، ثم طالبنى بعد ذلك بأن أحدد مصير الأسرة ولسوف يفعل ما أريد، مع مراعاة أنه مازال يحبنى ولا يستطيع أن يستغنى عنى أو عن الأخرى..

وهكذا وضع زوجى من تحملت معه صعوبات البداية وعناء الغربة وشاركته السراء والضراء فى ميزان واحد مع الأخرى التى لم تعرفه إلا وهو ناجح وثرى.. ولم أتحمل الموقف وثارت كرامتى وطالبته بالطلاق فراح يضغط علىَّ بكل الوسائل للعدول عنه وقام بتشويه صورتى أمام الأقارب والجيران بل وزملاء العمل قائلاً للجميع إن من تطلب الطلاق دون سبب تُحرم من رائحة الجنة، وإن زواجه بأخرى ليس سببًا مقنعًا لطلب الطلاق.

وراح الجميع يضغطون علىَّ للتنازل عن طلب الطلاق حرصًا على الأسرة وابنىَّ والأموال التى سأُحرم منها بالانفصال، بل ذهب البعض إلى تحذيرى من نظرة الناس للمرأة المطلقة، وواصل زوجى ضغطه علىَّ للتنازل عن طلب الطلاق وآلمنى أن وجدت الابنين فى

صفه يشاركانه الضغط عليَّ من أجل هذا الغرض.. وحين ناقشتهما فى ذلك فوجئت بهما يقولان لى إن والدهما على حق فيما فعل وإنه لو كان قد وجد معى ما وجده لدى الأخرى لما تركنى! بل إنهما ذهبا إلى أبعد من ذلك وأنذرانى بأنهما فى حالة الطلاق سوف يذهبان للإقامة مع أبيهما.. وقال لى أكبرهما إنه فى الثانوية العامة ويرغب فى الالتحاق بكلية الطب ويحتاج إلى دعم أبيه له لمواجهة ثمن الدروس الخصوصية الكبير.. أما أصغرهما فلقد وعده أبوه بالاشتراك فى ناديه المفضل ولا يريدنى أن أحرمه من ذلك! ولقد كان ابنى الأصغر هذا بالذات لا يطيق البعد عنى لحظة واحدة.. لكن والده زيَّن له ولأخيه ذلك وقام بشراء الملابس الفاخرة لهما.. واصطحبهما إلى النزهات وللإقامة فى الفنادق حتى أصبح ذلك شيئًا معتادًا فى حياتهما وأصبحا فى كل مناقشة بينى وبينهما يصيبانني بالحسرة من طريقة تفكيرهما.

ولقد كان من المفروض أن أضعف أمام كل هذه الضغوط وأقبل بالأمر الواقع وأستكين.. لكننى أُصبت بالجنون وصممت على الطلاق متنازلة من ذلك عن كل حقوقى. ودبر زوجى السابق لى شقة صغيرة من غرفة واحدة وصالة فى أحد الأحياء البعيدة لكى أترك له الشقة الواسعة التى كنت أقيم فيها، وتركت الشقة الكبيرة

بالفعل وانتقلت إلى الشقة الصغيرة مع وعد منه بأن يزورنى ابناى مرة كل أسبوع.

وهكذا انتهى كل شىء فى حياتى وخسرت كل شىء من البيت إلى الأسرة إلى ابنىَّ الذين تركتهما نزولاً على رغبتهما لكيلا أحرمهما من حياة الترف التى يعيشانها مع أبيهما ولم يخسر هو أى شىء.

لقد طلبت الطلاق ياسيدى وأصررت عليه للنهاية أملاً فى أن يرجع زوجى إلى عقله وأملاً فى أن يشعر ابناى بأنهما لا يستطيعان الحياة بدونى.. لكن أملى خاب فى كل شىء وها قد مضى عامان عرفت خلالهما أن زوجى السابق قد تزوج من زميلته فى العمل التى حثنى على أن أتخذ منها صديقة لى ووثقت فيها ثقة مفرطة.. وعلمت أيضًا أنه حين اعترف لى بزواجه من أخرى لم يكن قد تزوجها بعد وإنما كان يمهد لذلك.. فإذا تقبلت الأمر الواقع واستكنت تحصل هى على الطلاق من زوجها ويتزوجان، فلما تمسكت بالطلاق تزوجها خلال فترة النزاع بينى وبينه.

وأنا الآن أعيش وحيدة فى حجرة كالسجن، أعود من عملى فلا أخرج من بيتى إلا صباح اليوم التالى.. وأعيش فى انتظار موعد

زيارة ابنيّ لي، ولقد بدأت الزيارات في البداية كل أسبوع.. ثم تباعدت فأصبحت كل أسبوعين أو ثلاثة ثم وصلت الآن إلى كل ثلاثة أشهر، وهما يتعللان في ذلك بالدراسة والمذاكرة وأنني يجب أن أسعد باهتمامهما بالاستذكار!

ولست أفهم في النهاية كيف تتحول مشاعر رجل من الحب الشديد والإخلاص إلى القسوة الشديدة والمشاعر العدائية؟. أما ما يكاد يذهب بعقلي فهو كيف يتحول ابناي عن حبي على هذا النحو؟ إنني أشعر بالضعف والعجز وقلة الحيلة وعدم الثقة في أي إنسان وبأن حياتي لا معنى لها.. وأين العدالة في ذلك؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

لقد كنت على استعداد لأن أتفهم موقفك حين أصررت على طلب الطلاق ورفض الأمر الواقع الذى أراد زوجك فرضه عليك بالإكراه المعنوى، لو كنت قد انطلقت فى ذلك من موقف مبدئى لزوجة أحبت زوجها وأخلصت له وساندته فى كفاحه حتى بدأ يجنى ثمراته، ثم رفضت بعد ذلك أن تشاركها فيه أخرى وانتصرت لكرامتها فى وجه ضغوط ابنيها العاطفية عليها للتنازل عن مطلبها وتحملت فى سبيل ذلك تبعات اختيارها ورضيت بها. إذ أنه بغض النظر عن أن يتفق معك الأهل والابنان فى ذلك أو يختلفوا فإنه فى النهاية موقف مشروع يجيزه لك الشرع والقانون اللذان يعطيان الزوجة حق الاختيار إذا أراد زوجها أن يتزوج عليها بين الاستمرار فى حياتها الزوجية معه وبين رفض ذلك والتمسك بالانفصال عنه.

لكنك ياسيدتى لم تطلبى الطلاق وتتمسكى به فى وجه كل الضغوط التى تعرضت لها للتنازل عنه من زوجك السابق وابنيك وأهلك انطلاقًا من رغبة حقيقية فى الانفصال، وإنما من منطلق

آخر مختلف تمامًا، هو «الأمل» فى أن يدفع إصرارك العنيد على الطلاق، زوجك إلى التراجع عن زواجه بالأخرى وابنيك إلى اكتشاف أنهما لا يستطيعان الحياة بعيدًا عنك.. فكأنما قد اعتمدت فى ذلك على سياسة دفع الأمور إلى حافة الهاوية التى تتبعها بعض الدول للضغط على الخصم فتحشد قواتها على الحدود معه وتتهيأ للحرب ضده، لكى يتراجع عن موقفه ويقبل بما لم يقبل به من قبل بالوسائل السلمية.

وهو رهان خطير لايقدر عليه إلا من يثق فى قدراته وحساباته ويعرف جيدًا أن الطرف الآخر سوف يتراجع فى اللحظة الأخيرة قبل اندلاع الحرب.

وفى حالتك الشخصية فلقد كان هذا الرهان نفسه دليلاً على أنك لاترغبين فى الطلاق من زوجك وفقد ابنيك وإنما فى «الفوز» بهم جميعًا عند بلوغ الأمور بينك وبينهم حافة الهاوية أو حتى بعد السقوط فيها بقليل، وهو رهان خاسر أخطأت للأسف كل حساباته مع اعترافى لك بحقك العادل فى رفض مشاركة أخرى لك فى زوجك، ذلك أن دفع الأمور إلى الهاوية على هذا النحو سياسة لا يلجأ إليها إلا الطرف الذى يثق فى قوته من ناحية، وفى عجز خصمه عن الصمود للنهاية من ناحية أخرى.. وأنت ياسيدتى قد

أسأت تقدير عناصر القوة والضعف فى موقفك وموقف زوجك السابق، فلقد رأيت نفسك فى موقع القوة التى تسمح لك بدفع الأمور إلى هاوية الحرب، ورأيت زوجك السابق فى موقف الضعف الذى يدفعه للتسليم قبل انطلاق أول طلقة مدفع، مع أن واقع الحال كان كفيلاً بأن يلفت نظرك إلى أنه يتمتع فى صراعه معك بعناصر للقوة لم تتوافر لك للأسف منها استقطابه لابنيه فى صفه وثقته فى اختيارهما له دونك بعد الانفصال نظرًا لعلاقته الوثيقة بهما وقدرته المالية على إغرائهما بالانحياز إليه دونك وارتباط مستقبلهما الدراسى والعملى به، إلى جانب قدرته على الحركة والفعل استنادًا إلى مقدرته المادية التى لاتتوافر لك سواء قبلت بزواجه من الأخرى أو رفضت، إلى جانب وجود هذه «الأخرى» نفسها فى حياته وإمكان استغنائه بها عنك.. ولقد أنذرك ابناك بأنهما سوف ينضمان لأبيهما فى حياته الجديدة إذا تمسكت بمطلب الطلاق منه للنهاية.. وهو إنذار قاس ولا إنسانى ويكشف عن خلل غير مفهوم فى علاقتك بهما.. لكنه فى الحساب العملى عنصر قوة لزوجك وعنصر ضعف فى موقفك..

فعلى أى شىء إذن بنيت حساباتك ووثقت فى أنك إذا تمسكت بالطلاق حتى النهاية بل وإذا حصلت عليه أيضًا فلسوف

يدفع ذلك زوجك إلى التخلى عن زواجه من الأخرى وابنيك إلى العودة لك؟

إن الطلاق سلاح خطير يؤثر تأثيرًا فادحًا على حياة الزوجين والأبناء، ولهذا فإنه لا يجوز لعاقل أن يستخدمه كورقة ضغط للحصول به على تنازلات من الطرف الآخر مالم يكن راغبًا فيه بصدق ولأسباب تنبع من نفسه وظروفه وليس من الأمل فى أن يدفع الطرف الآخر للقبول بما كان يرفضه من قبل ـ كما أنه ليس من الحكمة أن يتخذ الإنسان موقفًا يعتمد فيه على «الأمل» فى الآخرين وليس على حسابات واقعية تتعلق به وتصدر عنه.

فإذا كنت تتساءلين عن العدالة فى كل ذلك فإنى أقول لك إن فى الحياة من صور الظلم الإنسانى والبعد عن روح العدالة الكثير.. كما أن فيها من صور العدل الإلهى والخير الكثير أيضًا.. وليس سؤالك عن العدل هو الأجدى بالتوقف عنده.. ولا سؤالك أيضًا عن كيف تتحول مشاعر رجل من الحب الشديد إلى القسوة المفرطة والعدائية.. لأن تحول المشاعر وارد وفقًا لتطور العلاقات الإنسانية ومتغيراتها.. وإن كان من الثابت كذلك أن مشاعر الحب الحقيقى الصادق قد تنتهى ذات يوم أو تفتر تبعًا

للتطـور الوجدانى للإنسان ودورة الأيام، لكنها أبدًا لا تنقلب إلى نقائضها من الكره والحقد والعداء، وإنما ما يستحق التوقف أمامه بالفعل فهو سؤالك المفزع كيف يتحول ابناك عن حبك على هذا النحو المؤلم!

والحق أننى قد أفهم تأثير الاعتبارات المادية والمستقبلية على قرار ابنيك الانحياز لأبيهما وتفضيل الحياة معه بعد الانفصال عنك، لكنى لا أفهم أبدًا ألا يتعاطف ابناك معك فى نزاعك مع أبيهما قبل الانفصال ولو باتخاذ موقف الحياد بينكما، ولا كيف يضغطان عليك للقبول بالأمر الواقع ولا يبذلان فى الوقت نفسه مساعيهما هذه مع أبيهما لكى يعدل عن قراره بالزواج من أخرى.. ولا تفسير لهذا الموقف المؤلم سوى أنه يكشف عن نوع من الخلل فى علاقة هذين الابنين بك وعلاقتك بهما، وعن أن حياتهما بينك وبين زوجك السابق لم تكن فيما يبدو خالية تمامًا من بعض ما.يدفعهما لتقبل فكرة زواج أبيهما من أخرى وعدم الانزعاج لها.. وفى كل الأحوال فإن الخسارة الإنسانية فيهما قاسية لأم مثلك مهما كان موقفها من أبيهما أو موقفه منهما.. ومن حقك أن تشعرى بالحسرة والألم وضياع كل شىء من يديك بسبب قسوة الأيام وسوء الحسابات.. وتقلب القلوب.... بكل أسف!



أنا سيدة فى الرابعة والثلاثين من عمرى.. ولى قصة أريد أن أرويها لك وأن تشاركنى فيها.. فأنا أقرأ بريد الجمعة منذ أكثر من عشر سنوات.. وكثيرًا ما فكرت فى الكتابة إليك فى مواقف عصيبة عديدة شهدتها حياتى إلى أن جاءت الآن اللحظة المناسبة.. ولأبدأ من البداية فأقول لك إننى نشأت بين أبوين طيبين وشقيق يكبرنى بعامين.. أما أبى فإنه رجل جاد فى حياته.. وشغل مناصب قيادية ويمزج بين الشدة والحنان فى تعامله مع أفراد أسرته، وأما أمى فربة بيت جامعية تؤمن بزوجها فى كل شىء ولا ترى رأيًا مخالفًا لرأيه وقد تفرغت لأسرتها منذ ارتبطت بأبى.. ونعم الاثنان معًا بحياة زوجية موفقة.

وفى بداية مرحلة الدراسة الجامعية.. خفق قلبى لأول مرة لشاب من أبناء الجيران وارتبطت به عاطفيًا.. وعانيت مرارة الإحساس بالذنب تجاه أبى وأمى لخيانتى لثقتهما فىَّ، وأردت أن أتخلص من هذه المعاناة بعد تعمق الحب فى نفسى فصارحت أمى بتعاهدى مع هذا الشاب على الزواج عقب التخرج. وطلبت منها أن تمهد لى عند أبى لكى يقبل بقراءة الفاتحة بين أسرتى وأسرة هذا الشاب.. لكى يصبح حبنا علنيًا ومشروعًا.. فنتقابل تحت أعين أسرتينا.. بدلاً من لقاءاتى

المختلسة معه فى الشوارع أو فى بيوت الجيران المشتركين خلال زياراتى لصديقاتى بها.

ففوجئت بثورة أمى العارمة ضدى ورفضها القاطع لهذا الاختيار.. وتهديدها لى بفضح سرى لدى أبى لكى يعاقبنى عقابًا صارمًا على فعلتى.. وانهرت وسألتها عن سبب هذه المعارضة الحادة فأجابتنى بأن هذا الشاب وإن كان من أسرة طيبة إلا أنه من فرعها الفقير ولا يملك شيئًا ويعيش مع أمه على معاش أبيه ولن يستطيع حتى ولو انتظرته عشر سنوات كاملة أن يدبر إمكانات الزواج، وبكيت لأمى كثيرًا ورجوتها أن تقف إلى جانبى بدلاً من أن تستعدى علىّ أبى، وصارحتها بأننى أحبه منذ سن السابعة عشرة وأنه متدين ومستقيم وطيب ويتحمل مسئوليته عن أمه ويعمل فى الأجازة الصيفية ليوفر مصاريف دراسته.. وأنه ليس ذنبه أن أباه قد مات وهو فى الخامسة عشرة ولم يعد له نصير فى الحياة.. ولسوف يكافح ويسافر بمجرد تخرجه بعد شهور للعمل فى الخارج ويبنى مستقبله إلخ.. فلم يؤثر استعطافى لها شيئًا..

وتصاعدت الأمور بعد ذلك سريعًا وفوجئت بأبى الذى لم يضربنى ذات يوم، ينهال علىّ بالضرب المبرح ويمنعنى من الذهاب للجامعة بل ويأتى بنجار ليغلق نافذة غرفة نومى التى تطل على

مسكن الشاب، ولم يكتف بذلك وإنما هدده بالضرب والإيذاء إذا لم يكف عن محاولة الاتصال بى..

وبعد أيام سمح لى أبى بالخروج وتوجهت للجامعة.. وأنا خائفة.. والتقيت بهذا الشاب.. فصارحنى بأنه مازال يتمسك بى ويعرف أنه لن تكون له حياة مع أية فتاة أخرى سواى.. لكنه لا يريد لى الأذى ولهذا فإنه سوف يقطع كل صلة له بى حرصًا علىَّ، وسيظل فى نفس الوقت مقيمًا على حبى وسيظل نظره معلقًا دائمًا بالنافذة المغلقة ليشعر بأنه معى فى كل وقت.. وبكى فى الشارع وهو يقول لى إنه يعذر أبى فى هياجه عليه إذ ماذا يملك شاب يتيم فقير مثله لكى يقدمه لابنته؟ وبكيت معه.. وأقسمت له أنه لن يمسنى بشر سواه، وأننى سأظل أنتظره إلى أن يتغلب على ظروفه ويتقدم لى ولو بعد عشر سنوات، ورفضت كل محاولاته لإعفائى من هذا العهد.. وافترقنا وأنا أذكِّره بعهدى له.. وأطلب منه أن يراقب نافذة غرفتى كل ليلة لكى يتلقى منى تحية المساء.. وهى إطفاء نورها وإضاءته ثلاث مرات متتالية..

وعدت إلى حياتى بعد ذلك وكففت تمامًا عن الإشارة لموضوع هذا الفتى مع أمى واكتفيت بتسقط أخباره عن طريق صديقاتى من

بنات الجيران حيث يزور إخوتهم.. ويعرفنه جميعًا ويحترمنه.. وواظبت على تحية المساء كل ليلة فى موعدها.

وفى عامى الجامعى الأخير تقدم لى شاب ممتاز من أقارب أمى فرفضته بلا تفكير.. ورفضت مجرد الحديث فى موضوعه، وثارت أمى علىَّ واتهمتنى بأننى مازلت على صلة بجارنا الشاب.. وأبلغت أبى بشكوكها فهاج من جديد وانهال علىَّ ضربًا وركلاً حتى أُصبت بالإغماء. وتوجه إلى بيت هذا الشاب وانهال عليه وعلى أمه سبًا ولعنًا وتمادى لأكثر من ذلك فصفعه صفعةً مدويةً أمام أمه.. وصرخت الأم باكية فهدَّأ ابنها من روعها ولم يفقد أعصابه ولم يزده عن أن قال لأبى إنه يظلمه وإن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه مظلوم ولهذا فهو يفوّض أمره إليه وحسبه الله وهو نعم الوكيل، كما أنه لن يخرج على حدود الأدب معه حتى ولو خلع حذاءه وضربه. فبُهت أبى وانصرف مضطربًا وروى لأمى كما عرفت فيما بعد ما حدث وقال لها إنه يشعر بالخوف من نظرة القهر والغلب فى عين هذا الشاب بعد أن ضربه.. فانعقد لسانه وهرول خارجًا من مسكنه وهو يُشفق على نفسه من أن تدعو أمه عليه بسوء.. وانتهت هذه الأزمة فى النهاية برفضى للخطيب المرشح لى.. وبعد عام آخر تكررت القصة بنفس تفاصيلها ورفضت خطيبًا آخر بإصرار دون إبداء أية

أسباب، وهاجت أمي وأبي من جديد وكررا نفس الاتهام لي بأنني مازلت على علاقة بجاري الشاب.. وانهال عليَّ أبي مرة أخرى ركلاً وصفعًا، وبالرغم من ندمه على مافعل مع هذا الشاب في الأزمة السابقة فلقد كرر نفس المأساة وتوجه إلى بيته وانهال عليه وعلى أمه بالتهديد والوعيد.. وفقد السيطرة على نفسه مرة ثانية وصفع فتاي بقوة.. وهمَّ بتكرار الصفع فأمسك الفتى بيده بقوة وقال له إنه قادر على الدفاع عن نفسه ورد الأذى بمثله لكنه لا يسمح لنفسه بذلك لأنه في مقام والده.. وإكرامًا للجيرة التي لم يرعها هو.. وإكرامًا أيضًا لأنه والد الفتاة التي كان يتمنى من كل قلبه أن يتزوجها. ورجع أبي من عنده واجمًا. وراح الفتى يكفكف دمع أمه وعيناه تدمعان حزنًا وتأثرًا.

وازددت إصرارًا على موقفي...

وتخرجت في كليتي وعملت بمساعدة أبي في وظيفة إدارية في إحدى شركات الفنادق الكبرى.. ووجدت نفسي قد تخطيت الرابعة والعشرين وأعمل، ومن حقي أن أفكر في حياتي الخاصة.. فصارحت أمي بأنني لن أتزوج إلا من اختاره قلبي منذ سن السابعة عشرة وحرمت نفسي منه طوال السنوات الماضية التزامًا بوعدي لها ولأبي.. ورجوتها أن تستأذن أبي في استقبال جاري مع أسرته

لطلب يدى.. خاصة وقد عمل بقرية سياحية بالغردقة.. وتحسنت ظروفه المادية بعض الشىء.. وأملت أن تكون الأعوام قد ألانت المواقف المتصلبة.. ففوجئت برفض أبى وإعلانه لى ولأمى أنه يفضل أن أصبح عانسًا على أن يقبل زواجى من شاب تحدى إرادته! وعبثًا حاولت إقناعه بأن أحدًا منا لم يتحد إرادته وأننا قد قطعنا علاقتنا بالفعل منذ أكثر من ٤ سنوات دون جدوى! وضقت بهذا الموقف المتعنت.. فلجأت إلى عمى وطلبت منه أن يستضيفنى عنده بعض الوقت.. وأن يتدخل بينى وبين أبى.. واستمع عمى إلى قصتى ووعدنى بمحادثته ولكن بعد أن يلتقى بجارى أولاً ويتأكد من أخلاقياته وجديته، وزار عمى بيت جارى خلال إجازته الشهرية من عمله بالغردقة وجلس إليه وإلى أمه واستمع منهما لما فعله بهما والدى على مدى ٣ سنوات وأكثر.. وتأثر بظروف هذا الشاب والتزامه الخلقى وبره بأمه وصبره على ماناله من أبى.. ووعده بمساندته والتقى بالفعل بأبى وصارحه بأننى أرغب هذا الشاب وأنه لا شىء يمنعنى من الزواج منه ضد إرادته إلا رغبتى فى ألا أخرج عن طاعته، وأنه من الحكمة أن يكون مرنًا معى لكيلا يدفعنى دفعًا لشق عصا الطاعة عليه، وزكّى فتاى عنده، وشاركه أخى الوحيد الذى كان قد حصل لتوّه على الماجستير فى هذا المسعى وشهد لأخلاقياته واستقامته..

وبعد عذاب وعناء قبل أبى بزواجى من هذا الشاب قبول الكاره المضطر، وقيَّد موافقته بأنه لن يجهزنى للزواج ولن يشترى لى أى أثاث إلا بعد أن ينجح هذا الشاب فى الحصول على شقة مستقلة عن مسكن أمه.. وأيدته أمى فى موقفه المتحفظ بدعوى اختبار صدق نية فتاى تجاهى وأنه ليس طامعًا فى مال أبى!

وتمت خطبتى له فى أضيق الحدود وبحضور عمى فقط من أهل أبى، وبدا أبى خلال حفل الخطبة واجمًا متحفظًا وكذلك أمى.. لكن فرحتى بالرغم من ذلك كانت طاغية.

وسعيت لدى مديرى لنقل خطيبى من القرية السياحية التى يعمل بها فى الغردقة إلى الشركة التى أعمل بها.. ووفقنى الله فى مسعاى بعد أن علم مديرى بقصتنا القديمة وقابل خطيبى واقتنع به وبمؤهلاته.

ولم يسترح أبى لوجودنا فى نفس المكان فطالب خطيبى بعقد القران على وجه السرعة.. وعقدنا قراننا فى نفس الجو المتحفظ، وبعد القران بعدة أسابيع سألت نفسى عما يدعونى للانتظار أعوامًا أخرى حتى يستطيع خطيبى توفير مسكن مستقل لنا، وفى مقدورى أن أقيم معه فى شقته القديمة وهى واسعة ومريحة وأمه سيدة طيبة وتحبنى وتشفق علىّ مما تحملته من أجل ابنها.. وأستأذنت

أبى فى ذلك على استحياء فقال لى فى ضيق افعلى ما تشائين بنفسك. . فلقد يئست منك نهائيًا!

وبالرغم من تصريحه لى بالانتقال إلى بيت زوجى إلا أننى كرهت كعادتى أن أفعل شيئًا لا يرضى عنه رضاءً تامًا. . وتمسكت بألا أخرج من بيتى إلا حين يأذن لى ذلك بنفس راضية، وحدثت أبى فى الأمر. . فأعلن لى موافقته واشترى على وجه السرعة بعض الملابس والأدوات المنزلية. . وأدوات المطبخ. . . والعطور إلخ كأنما قد عزّ عليه فى اللحظة الأخيرة أن أُزف إلى عريسى بلا أى جهاز وكرر لى وعده بأن «حقى» محفوظ عنده وأنه سوف يؤثث لى المسكن الجديد حين نحصل عليه. ولم أتمالك نفسى حين قال لى ذلك فارتميت على صدره وأنا أقبله وأشكره ودموعى تسيل وهو ينظر إلىَّ فى حرج كأنما لا يصدق أننى مازلت أحبه بعد ماجرى بيننا، فقلت له وكيف لا أحبه بالرغم مما حدث وهو أبى. . وسندى وعزى. . ومرجعى الذى أرجع إليه فى الملمات ولم يفعل ما فعل إلا حرصًا علىّ؟ فدمعت عيناه وأقسم ألا أنتقل إلى بيت زوجى إلا بعد حفل عشاء يقيمه لى فى أحد الفنادق، وبعد أن أرتدى فستان الزفاف الأبيض. . ثم أعطى أمى مبلغًا من المال وطلب منها شراء فستان لى، وحدد يوم الخميس لحفل العشاء وارتداء فستان الزفاف،

واجتمعنا ٢٠ شخصًا فى حفل عشاء بفندق كبير وارتدى خطيبى بدلته الجديدة.. وجلست إلى جواره ونحن نطير من السعادة، وفى آخر الليل توجهنا إلى مسكنه وبدأت حياتى الزوجية معه. ولن أطيل عليك أكثر من ذلك.. وإنما سأقول لك فقط إننى عشت ومازلت أعيش أجمل أيام حياتى مع زوجى الذى تحملت الضرب والإهانة من أجله.. وتحمل هو الإساءة والأذى من أجلى ولم تتغير مشاعر كل منا أو يفقد أمله فى الآخر.

وعلى عكس كل ما قيل لى من تحذيرات طويلة من الحياة المشتركة مع والدة زوجى، فلقد وجدت معها راحتى وأمانى ونعمت بعطفها علىَّ وحبها لى وتقديرها لتمسكى بابنها.. فضلاً عن أنها سيدة طيبة وحكيمة ولا تتدخل فيما لا يعنيها وتراعى دائمًا خصوصياتى.

ولقد أنجبت بعد حوالى عامين من زواجى طفلاً جميلاً لم يتردد زوجى فى موافقتى على تسميته باسم أبى، وأنجبت بعد عامين آخرين طفلة رحبت بشدة بتسميتها على اسم والدته.. التى تحملت معظم عبء رعاية الوليد الأول عنى.. وأضافت رعاية المولودة الجديدة إلى مسئوليتها.

والحمد لله على كل شىء.. فابنى الآن فى الثامنة من عمره

وأخته فى السادسة وهما متعة أبى الأولى فى الحياة الآن. . كذلك أمى، أما زوجى الذى كان مرفوضًا منهما من قبل فلقد أصبح أقرب الناس إليهما خاصة بعد سفر أخى الوحيد للخارج للحصول على الدكتوراه منذ عامين، وهو الذى يلبى مطالبهما ويقضى مصالحهما، ويعاملهما بحب واحترام.

وأما الشقة القديمة التى تزوجنا فيها فلقد أقنعت زوجى بأن ما ندخره للحصول على مسكن جديد. . فإن ابنى وبنتى أحق به. . لأننى أشعر بالراحة فيها فضلاً عن قربها من مسكن أسرتى الذى يتيح لى زيارة أبى وأمى كل يوم.

ولقد سمعت بحماس أبى لرأيى هذا بالرغم من موقفه السابق من مسألة الشقة. . وهكذا فقد جددنا الشقة القديمة ببعض مدخراتنا حتى أصبحت كالعروس. وغطينا الأرض بالسيراميك وجددنا الحمامين. . وأعدنا طلاء الجدران. . فإذا بأبى يقول لى إنه يعتبر ماحدث تنفيذًا لشرطه السابق علينا لكى يؤثث لى مسكنى. . وإذا به يشترى لى أثاث ٤ غرف ممتازة، وكان يومًا سعيدًا يوم وقفت سيارة نقل الموبيليات الكبيرة أمام بيتنا. . وراح الحمالون ينزلون جهاز العروس الذى تزوجت قبل عدة سنوات. . ويأخذون بدلاً منه الأثاث المتهالك، وازددت حبًا لأبى وأمى وسعادةً بزوجى وولدىَّ.

أما عن زوجى فنحن متفاهمان فى كل شىء.. والحب القديم الذى جمع بيننا منذ الصبا ازداد عمقًا ورسوخًا.. وكلما اختلفنا حول أى خلاف عابر تذكر كل منا ما صبر عليه من أذى وحرمان من أجل شريكه فيذوب الخلاف.. ويعود الصفاء ولقد كتبت لك رسالتى هذه بعد أن انتهت كل المشاكل لكى أقول لك إننى قد قرأت فى بريدك عدة رسائل لفتيات تحدين أهلهن وتمسكن بشبان أجمع الأهل على أنهم لا يصلحون لفتياتهم وأن عيوبهم ظاهرة ولا تخفى على العيان فشققن عصا الطاعة عليهم وتزوجن منهم، ثم لم تمض سنوات حتى صدمن فى شخصيات أزواجهن الذين هجرن الأهل من أجلهم، وتجرعن كؤوس الشقاء معهم.. ولُمن أنفسهن أنهن لم يستمعن لنصيحة الأهل فى الوقت المناسب بعد أن خفّت حدة العاطفة وظهرت المشاكل والشخصيات الحقيقية.. كما قرأت تعليقاتك على هذه الحالات بأن هذا ما يحدث بالفعل فى حالات كثيرة من حالات الزواج التى تشق فيها الفتيات عصا الطاعة على آبائهن وأمهاتهن ويتزوجن على الرغم من إرادتهم لكى يضعنهم أمام الأمر الواقع، ويخلفن المرارة والأسى فى نفوسهم تجاه بناتهم اللاتى أحبوهن وطلبوا لهن السعادة والأمان.. وأن من واجب الفتيات والأبناء إذا اختلفت وجهات نظرهم مع رأى الأهل فيمن يرغبون فى الارتباط بهم.. ألا ييأسوا أبدًا من الأمل فى نيل رضا الأهل عن

اختياراتهم فى الحياة.. وألا يقصروا فى طلب قبولهم لشركائهم فى الحياة حتى ولو لم يكونوا على اقتناع كامل بهم لكى يبدأ الأبناء حياتهم الجديدة مسلحين برضا الأهل وتمنياتهم لهم بالتوفيق والسعادة.

والحق أننى أؤيدك فى ذلك وأؤكد لك بأننى أشعر بأن كل ما أصابنى من توفيق فى حياتى الزوجية وفى عملى إنما يرجع إلى إصرارى على ألا أخرج على طاعة أبى وأمى، وألا أتزوج من فتاى إلا بعد قبولهما له حتى ولو لم يكونا مقتنعين اقتناعًا كاملاً به، كما يرجع أيضًا إلى صبرى على أبى سنوات طويلة إلى أن لان موقفه من زوجى وقبل به.. ثم رضى عنه، إلى جانب دعائى المتصل إلى الله سبحانه وتعالى أن يجمع شملنا أنا وفتاى فى حياة مشروعة يرضى عنها الله ورسوله.. وكذلك دعاء فتاى وصلاته وصومه.. وتكفينى سعادتى الآن وأنا أرى زوجى وهو يخاطب أبى «بيا عمى» عن حب حقيقى واحترام، وسعادتى بكلمات أبى وأمى عنه وكيف أن الأيام قد أثبتت لهما أن الأصل الطيب والأخلاق الكريمة وحسن المعاملة أهم من كل مال الدنيا..

كما كتبت لك أيضًا لكى تشكر عنى أبى وأمى عن كل ما قدماه ويقدمانه لى حتى اليوم من حب ومساندة.. واحترام لزوجى

ووالدته.. وأرجو أن تتمسك برأيك دائمًا فى عدم تفضيل خروج الأبناء على طاعة الأهل.. والإصرار على أن يكافحوا للنهاية لنيل رضاهم ومباركتهم لاختياراتهم فى الحياة كما فعلت أنا.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

كان الإمام ابن حزم الأندلسي يقول: «أسرع الأشياء نموًا أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثًا أبطؤها نفادًا وما دخل عسيرًا لم يخرج يسيرًا»!

وكان الكاتب الإنجليزى الثائر توماس مان يقول «إن ما نحصل عليه بثمن رخيص قد ننظر إليه بغير اهتمام كبير، أما ما نحصل عليه بالثمن الغالى فهو دائمًا ما يستحق منا الاهتمام والتكريم».

ولهذا فلا عجب ياسيدتى فى أن تقبضى أنت وزوجك على الجمر لكى تحفظا عليكما سعادتكما وحبكما بعد أن كافحتما كفاحًا مريرًا لتتويجه بالزواج وقبول الأهل.. وراحة الضمير لعدم خروجكما على طاعة الأبوين بالرغم من طول الصبر والانتظار.

والحق أننى أتفق معك تمامًا فى أن أحد أسباب توفيقك فى حياتك الزوجية والعملية هو إصرارك على ألا تشقى عصا الطاعة على أبيك.وألا تتزوجى ممن اختاره قلبك على غير إرادته.. بالرغم

من طول الصبر وبالرغم أيضًا من إتاحة مثل هذا الاختيار أمامك خلال سنوات الانتظار.. فلاشك فى أن السعادة التى يحققها المرء لنفسه على حساب تعاسة أقرب الناس إليه وإيلامهم نفسيًا وتمرده عليهم تكون دائمًا سعادة منقوصة، أو سعادة يكدرها إحساس أصحاب الضمائر بالذنب تجاه أعزائهم، وكثيرًا ما تصطدم مثل هذه السعادة الناقصة بسوء التوفيق فى الحياة، ويجهد المرء نفسه لكى يحاول فهم أسبابه فلا يقوده تفكيره غالبًا إلا أنه محروم من مباركة الأهل لحياته وتمنياتهم الطيبة له.

على أنى قد أضيف إلى أسباب توفيقك فى حياتك العائلية إلى جانب اعتصامك بالصبر إلى أن تنالى رضا أبويك عن اختيارك لشريك الحياة، سببًا آخر هو أن هذا الاختيار من الأصل لم يكن اختيارًا متعارضًا مع أحكام العقل أو الدين، وإنما توافقت فيه أحكام القلب مع أحكام العقل، فالفتى لم يكن يعيبه فى نظر أبويك سوى قلة إمكاناته المادية وظروفه الإنسانية كشاب يتيم لا سند له فى الحياة، فى حين تتوافر فيه على الجانب الآخر كل المؤهلات الأخرى التى ترشح الحياة المشتركة معه للنجاح والتوفيق من طيب العنصر وكرم الأخلاق والاستقامة الشخصية والتدين وحسن المعاملة،

والقدرة على ضبط النفس والالتزام بالسلوك المهذب فى أشد لحظات الانفعال. . ولقد تجلت فضائله هذه حين اعتدى عليه والدك أكثر من مرة، فكيف لا ترشحه هذه المؤهلات الأخلاقية إلى جانب حب كل منكما للآخر للسعادة والتوفيق معك؟

لقد أعجبنى فى قصتك إصرارك الذى لم يضعف على ألا ترتبطى بفتاك إلا عن رضا من الأهل على اختيارك لحياتك ولو طال بك الصبر والانتظار سنوات وسنوات.

فكأنما كنت تعملين بنصيحة العقلاء فى كل زمان ومكان.. والتى عبَّر عنها زعيم الهند الروحى المهاتما غاندى بقوله:

«لا تسلكْ إلى الهدف السليم إلا الطريق السليم».

ولا غرابة فى ذلك، لأن الغاية الشريفة ينبغى ألا يتخذ الإنسان للوصول إليها سوى الوسائل الشريفة وإلا أساء إلى نبل مقصده وإلى نفسه وإلى الآخرين.

كما أعجبنى فى قصتك أيضًا أن والدك قد غلَّب فى النهاية نداء الحكمة على نداء العناد وصلابة الرأى، فسلَّم باختيارك بغير أن يدفعك دفعًا إلى شق عصا الطاعة عليه، وإن كان هذا التسليم قد تأخر طويلاً حتى عتبتُ عليه إيذاءه البدنى لك أكثر من مرة، وعتبت عليه أكثر تهوره على فتاك الشاب الوحيد اليتيم المغلوب على أمره

حتى ليمد إليه يده بالأذى. . فلا يفقد الآخر سيطرته على نفسه ولا يرد عليه الأذى بالمثل، غير أنه لا لوم ولا عتاب الآن وقد تغيرت المواقف. . وكلل الحب الشريف بالزواج الموفق، وانتصر الحب الأبوى آخر الأمر فى قلب أبيك على عناده وتهوره السابقين وتكشف فى النهاية عن أب يحرص على سعادة ابنته ويفيض قلبه بالحب والعطف عليها، وعن رجل يحترم كلمته لها فيفى لها بوعده الذى قطعه على نفسه ويؤدى إليها «جهازها» بعد سنوات من الزواج والإنجاب، ويسعد بسعادتها ويحنو على طفليها ويرى فيهما امتداداً له ويمحو من نفسه كل آثار المرارة السابقة تجاه زوجها ويعتبره ابنًا ثانيًا له ويبادله الابن الجديد حبًا بحب واعتزازاً باعتزاز.

أما دعاؤك إلى ربك أن يجمع الله بينك وبين من أحببت فى حياة مشروعة يرضى عنها الله سبحانه وتعالى ورسوله، فلقد استجاب له ربك وأنعم عليك برفقة من تحبين والتوفيق معه وإنجاب الذرية الصالحة منه، ورضا الأبوين عنك ومباركتهما لحياتك وسعادتك وكيف لا يستجيب الله جل وعلا لدعاء القلوب المخلصة كقلبك. . وقلب فتاك وهو من قال عنه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فى الحديث الشريف ما معناه: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»

حتى لقد كان أحد الصالحين يردد دائمًا فى دعائه: «يامن تغضب على من لا يسألك لا تمنع عنى ما قد سألتك»!

فهنيئًا لك ياسيدتى سعادتك وسلامك النفسى ورضاء أبويك عنك، وتذكرى دائمًا أن ما نحصل عليه بالعناء وبالثمن الغالى من أيامنا ولياليِنا ينبغى لنا دائمًا أن نتمسك به ونذود عنه عوادى الأيام وتقلبات الأهواء، وشكرًا لك على رسالتك الجميلة.

٣

أبعث إليك برسالتى هذه لأحيى صاحبة رسالة «شهوة الانتقام» لإيجابيتها المطلوبة، وفهمها العميق لواجبات وظيفتها تجاه أبنائها الصغار.. فأنا يا سيدى طبيب نفسى منذ ٢٥ عامًا، وكان موضوع رسالتى للدكتوراه «الصحة النفسية عند الأطفال وحتى البلوغ»، وعلى مدار سنوات عملى الخمس والعشرين، لم أقابل ما هو أشد تأثيرًا على الأطفال فى طفولتهم وحتى سن البلوغ أكثر من تبعات الانفصال السيئة لأبويهم، لا أتحدث عن الانفصال نفسه، بالرغم مما نعرفه جميعًا من التأثير السيئ والسلبى لانفصال الزوجين على الأطفال، وإنما أركز حديثى على التبعات السيئة وردود الأفعال غير المسئولة التى يقوم بها أحد الزوجين السابقين تجاه الآخر، مستخدمين فى ذلك أطفالهم دروعًا بشرية تارة، وسيوفًا يغمدونها فيمن كانوا شركاء حياتهم تارة أخرى. إننى مع القول الذى يؤكد أنه إذا ما كانت الحياة الزوجية من الشقاء والتعاسة بحيث يستحيل معها أن يعيش الزوجان معًا.. فلا بأس بالطلاق لحماية الطفل من الحياة فى منزل مليء بالمشاكل إذ إنه ليس هناك أسوأ من نمو طفل فى جو مليء بالكراهية، ولكنى أقصد بالانفصال هنا الانفصال النبيل الذى يقلل كثيرًا من التأثيرات السلبية على الأطفال.. وبحكم سنوات عملى السابقة فإننى أقول إن الزوجين إذا تم بينهما الانفصال فى

السنوات الأولى وهناك أولاد بينهما فإنه بحكم الحضانة سيكونون مع أمهم، التى لها تأثير خطير على التكوين النفسى لهم، وللأسف الشديد فإن أكثر من ٨٠٪ من الحالات التى أباشرها لأبناء فى سنوات المراهقة تكون فيها الأم قد لعبت دورًا مدمرًا لنفسية أطفالها بتشويه صورة الأب لديهم، ولهؤلاء أقول: إن الطفل مكوّن من جزء من أبيه وجزء من أمه وهو نفسيًا وجسديًا نبت ونما من أرضهما، وكلاهما يتمتع عنده بمكانة المثل الأعلى، فإذا حاول أحد أن يقنعه بأن أباه ملىء بالعيوب، فلابد وأن الطفل سيقتنع أيضًا أنه شخصيًا يحمل هذه العيوب والنقائص، لأن الولد مثل والده، هذا ما يعرفه الابن تمامًا.

إن الاتهامات التى يقولها كل طرف عن الطرف الآخر بعد انفصالهما لأولاده.. تؤذيهم وتجعلهم يكرهون الحياة نفسها، ويحتقرونها، لأن أسرهم بهذه الصورة، مما يوقعهم فى براثن كراهية الطرفين معًا الأب والأم، ويتعذبون لأنهم فى الوقت نفسه يحبونها.

والأكثر سوءًا من كل ذلك هو الحالة التى يرتكب فيها أحد الوالدين جريمة حرمان الطرف الآخر من رؤية الابن، والتسبب فى أكبر قدر من الآلام له وإذلاله. إن كل طرف يجب أن يترفع عن

مثل هذه التصرفات الطائشة إذا كان مقتنعًا تمامًا بالحقيقة الواضحة. وهى أن الابن جزء من أبيه وأمه، وأنه يحتاج إليهما فى الوقت نفسه.

إننى أوجه كلمة إلى الأم كاتبة رسالة شهوة الانتقام «بحكم حضانتها للصغير»، إن عليها أن تلعب دورًا حكيمًا، وهو ليس دور المظلومة التى تبحث عن العار لتصبه على رأس زوجها السابق أو التى تحاول أن تنال عطف طفلها عليها وسخطه على أبيه.. وإنما دور الإنسانة المتزنة التى تتفهم الأمور، إنه الدور الذى تتحاشى فيه اتهام الأب بأنه فى جوهره وأساسه شخص سيئ، لا ينبض قلبه بالحب، بل يجب أن يعرف الطفل من أمه بأن أباه له صفات تحبب فيه معظم الناس.. وأشد ما يحتاجه هذا الطفل هو أن يسمع أن أباه أحبه، ومازال يحبه، ولكى تصل الأم لذلك، فيجب عليها أن تضع حبها لطفلها فوق كرهها لأبيه وسخطها عليه، إن فكرة الابن عن أبيه هى نفس الفكرة التى يتخذها عن نفسه، وفكرة الطفل عن أمه هى نفس الفكرة التى سينظر بها إلى زوجته فى المستقبل، وكذلك فكرة الابنة عن أبيها هى نفس الفكرة التى ستنظر بها إلى الرجال فى المستقبل عندما تنضج، وفكرة الابنة عن أمها هى نفس الفكرة التى ستحاول أن تكون عليها زوجة فى المستقبل، ولهذا يجب ألا يقف الطلاق بين

الأبوين حاجزًا دون تكوين أحاسيس الحب فى قلوب الأبناء لآبائهم وأمهاتهم.

أكرر وأؤكد أن مصلحة الابن يجب أن تكون فى احترامه لأبويه، وأن ينال حقه الكامل من حبهما، وأن يستعمل كل طرف ذكاءه الكامل لإرضاء الطفل نفسيًا، ويتحقق ذلك عندما يستطيع أن يستمتع فعلاً بعطف ومصاحبة الطرف الآخر الذى لا يقيم معه إقامة كاملة.

إن الطفل يعرف تمامًا أنه لا شىء فى العالم يستطيع أن يعوضه حنان الأب أو حنان الأم، وهذه هى الفكرة الأساسية التى يجب أن يقيس بها الأمور كل زوج منفصل أو زوجة منفصلة، ومؤسسات توجيه الأطفال والعيادات النفسية تؤكد أن الطفل الذى يفقد حب الأب أو الأم يعانى القلق النفسى والتوتر الدائم.

كما أنه يجب ألا نستخدم الأبناء كوسيلة لإلهاب الصراع عن طريق لى ذراع الطرف الآخر، ويجب أن يكون الأبناء بعيدين كل البعد عن الصراعات التى تنشأ بعد الطلاق، إن محاولات أى طرف أن يجذب إليه الأبناء عاطفيًا، ويحصل على تأييدهم هى محاولات فاشلة ولا تثير لدى الأبناء إلا الاستخفاف والاستهذاء وربما الاشمئزاز، ولهذا يجب أن نحافظ على التوازن العاطفى لدى فلذات أكبادنا .

وبالرغم مما سبق، فإن كل ذلك لا يعنى أن أطفال الأبوين المطلقين لا يستطيعون أن ينموا نموًا سليمًا آمنًا، ولا أن يقيموا حياةً زوجيةً طيبة عندما يكبرون، فكثيرون منهم يفعلون ويفلحون، ولكن ينبغى أن يكون واضحًا جدًا للأب والأم على السواء أن الأمر يتطلب جهدًا غير عادى وفطنة وتبصرًا وروحًا كريمة قوامها المودة والرحمة والترفع عما حدث لكل منهما، المهم هو أن يتحاشى كل طرف تحطيم صورة الطرف الآخر عند الطفل، فإن فعلا ذلك فإنهما يلقيان بطوق النجاة لأطفالهما ويحميانهم من كثير مما يمكن أن يعانوه، ويستمر معهم حتى آخر حياتهم.

كلمة أخيرة للآباء والأمهات، اتقوا الله فى أولادكم فهم الحاضر والمستقبل، وأذكرهم بقول الرسول الكريم ﷺ عن إحدى خصال المنافق «**أنه إذا خاصم فجر**» صدق رسول الله.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

كلما تجدد الحديث عن جناية بعض الآباء والأمهات على أبنائهم باتخاذهم ساحة للصراع غير الشريف فيما بينهم.. وسعى كل طرف منهم لاجتذاب مودة الأبناء إليه وغرس الكراهية فى نفوسهم ضد الطرف الآخر.. تذكرت كلمة أطلقها قاض أمريكى قبل أن ينطق بحكمه فى جريمة بشعة ارتكبها شاب ضائع فقال إن كل جريمة تبدو للآخرين بلا دوافع مفهومة وراءها غالبًا إنسان حُرم فى طفولته من الحب وإحساس الأمان فى حياته العائلية. ولقد كتب الكثير عن آثار تمزق الأطفال بين الأبوين على معنوياتهم وتكوينهم النفسى ورؤيتهم للحياة.. لكن دراسة حديثة قد كشفت عن أن هذه الآثار لا تقتصر على الجانب المعنوى والنفسى فقط، وإنما قد تمتد أيضًا إلى ماهو أبعد من ذلك. فقالت الدراسة إن تعرض.الأطفال للضغط العصبى بسبب الخلافات العائلية المتكررة قد يؤدى إلى انخفاض ملحوظ فى إفراز هورمون النمو لديهم وإلى زيادة إفراز هورمونات الضغط العصبى مما يضر بأجزاء من المخ تؤدى دورًا رئيسيًا فى نمو ذاكرة الطفل وقدرته على التعلم. ذلك لأن هورمون النمو يتم إفرازه خلال النوم العميق، وينخفض معدل الإفراز بسبب اضطرابات النوم التى يعانيها عادة

الطفل بسبب التوترات العصبية إثر خلافات الأبوين الحادة.. أو بسبب تمزقه بين حبه لأحد الأبوين وكراهيته للآخر، فضلاً عن أن هذه التوترات تضعف جهاز المناعة فى جسمه، وتزيد من احتمالات الإصابة بالأمراض المعدية.

فإذا تذكرنا ما يقوله العلماء من أن التخلف العقلى ليس وراثيًا فقط، وأن منه ما يرجع إلى أسباب تتعلق بالبيئة التى ينشأ فيها الطفل.. وأنه إذا نشأ إنسان فى بيئة لا تساعد على تنشيط العقل فإن عقله لن ينمو بنفس المعدل الذى ينمو به عقل إنسان آخر نشأ فى بيئة سوية، ويضربون لذلك مثلاً بالطفل الرضيع الذى تتولاه الذئاب وترضعه وترعاه فيشب شبه أبكم ولا يكاد يتميز إدراكه عن إدراكها فى شىء كثير.. إذا تذكرنا كل ذلك لم نستبعد أن يكون للبيئة العائلية غير السوية التى ينشأ فيها الأطفال بسبب خلافات الأبوين المستمرة أمامهم.. وإشراكهم فيها.. أو استخدامهم كأداة فى حروبها.. بعض الأثر الذى تتركه بيئة الذئاب على إدراك الرضيع الذى اختارت له الأقدار أن ينشأ بينها من الناحية العقلية فضلاً عن الآثار النفسية والتربوية والصحية الأخرى، فهل يدرك بعض الآباء والأمهات حقيقة ما يجنون على أبنائهم خلال انشغالهم فى معاركهم العلنية أمام هؤلاء الأبناء. وخلال استخدامهم لهم فى حربهم غير الشريفة ضد الطرف الآخر قبل الانفصال أو بعده؟.


مدير الإدارة
قطب

أنا رجل فى السابعة والأربعين من عمرى. . أقيم فى مدينة كبيرة من مدن الأقاليم. . نشأت فى أسرة بسيطة متدينة. . وتشربت منها النفور من الحرام فى الفعل والقول والإشارة. . وأنهيت تعليمى وعملت بإحدى الهيئات بمدينتى وساهمت مع أبى فى إعداد صغرى شقيقاتى للزواج بعد أن ضعفت موارده فى شيخوخته، وشعرت بالرضا عن نفسى لإعانتى لأبى فى تلك المشكلة التى أقضت مضجعه. . ونعمت برضاه ودعواته الصالحة لى ودعوات شقيقتى الصغرى لى بالستر فى الدنيا والآخرة كما سترتها أمام أسرة زوجها. . ودعوات أمى الطيبة كذلك، وبسبب استدانتى لمساعدة شقيقتى ظللت ٤ سنوات بعد عملى أعيش فى تقشف شديد وأحرم نفسى مما يستمتع به الشباب فى مثل سنى لكى أسدد أقساط الديون والجمعيات ولم أندم يومًا على ذلك. . بل إننى كثيرًا ما شعرت بالاعتزاز وأمى تقول لى إننى ولدت رجلاً من البداية. . وتصرفت دائمًا تصرف الرجال حتى وأنا طفل صغير. . ولسوف أظل دائمًا رجل البيت إلى النهاية. . ورحل أبى عن الحياة بعد عملى بخمس سنوات داعيًا لى بالستر والصحة وطول العمر. . واحتضنت أمى بعد رحيله وخففت عنها أحزانها ووحدتها وأصبحت أبًا لشقيقاتى المتزوجات حتى لمن يكبرننى منهن فى

السن.. وحرصت على أن يظل بيت أبى مفتوحًا لهن يجدن فيه راحتهن.. ويجتمعن مع أبنائهن فى الأجازات والأعياد، ونستمتع بالجو العائلى والحب الصادق الذى يجمع بيننا، وفى هذه الجلسات العائلية واصلت شقيقاتى وأمى إلحاحهن علىّ بالزواج وراحت كل منهن ترشح لى فتاة تراها مناسبة لى، إلى أن استقر الاختيار على فتاة شهد لها الجميع بالأخلاق والالتزام الدينى والاحترام، ورفضت أن أتزوج فى مسكن أمى لكى يظل بيتها مفتوحًا لشقيقاتى، ونجحت فى الحصول على شقة بالإيجار قريبة من بيت الأسرة، وبدأت حياتى الزوجية مع زوجتى وكانت أول امرأة فى حياتى فأحببتها بإخلاص وحرصت على إسعادها وراحتها.. وأصبح يومى يبدأ فى الصباح المبكر بتناول الإفطار مع زوجتى ثم نخرج معًا فتذهب هى إلى عملها.. وأذهب أنا إلى بيت أمى القريب لأحظى برؤية وجهها السمح.. وأفتتح يومى بدعائها الصالح لى، فأجدها جالسة على «الكنبة» القديمة فى صالة الشقة وقد نهضت من نومها فى الفجر، واغتسلت وأدت صلاتها الطويلة وتلت أدعيتها المحفوظة لأبنائها ودعت لزوجها وأبويها بالرحمة والمغفرة وتناولت كسرة من الخبز مع بعض الجبن.. وانتظرت قدومى لأشرب معها القهوة فما أن أفتح الباب بالمفتاح الذى أحتفظ به حتى تتهلل لرؤيتى وتستقبلنى بابتسامة الترحيب وتشعل موقد الكحول تحت «كنكة» القهوة المعدة سلفًا..

وأجلس إلى جانبها.. وأسألها عن صحتها وأحوالها وأستمتع بشرب القهوة والحديث معها لمدة نصف الساعة ثم أقبل جبينها ويدها وأنصرف إلى عملى وأنا مفعم بإحساس التفاؤل والابتهاج.

وهكذا كل يوم طوال الأعوام الماضية.. لم يغيّر من عادتى إلا بعض الظروف الطارئة كإنجاب زوجتى لطفلتنا الأولى ثم الثانية.. أو سفرى إلى خارج المدينة فى عمل.

وأما زوجتى فقد أحبت أمى وشقيقاتى كما أحبهن.. وغبطتنى على علاقة الحب الصادق التى تجمع بيننا.. وأسفت كثيرًا لأنها لم تستمتع بمثل هذه العلاقة العائلية الدافئة.. حيث ساد التباعد والفتور علاقات إخوتها ببعضهم البعض وعلاقاتهم بأبويهم. ومضت بنا الأيام وأنا سعيد بحياتى وزوجتى وأسرتى وتقدمت الابنتان فى مراحل العمر والدراسة.. ولم تشهد علاقتى بزوجتى أية مشاكل حقيقية.. ولم يتجاوز أى خلاف عابر بينى وبينها حدود الخلافات العادية التى تحدث بين الأزواج والزوجات، وسرعان ما تجد حلها خلال ساعات أو أيام على الأكثر، وكثيرًا ما كنت أنا البادئ بالصلح حتى ولو لم أكن مخطئًا لحبى لها ولكرهى للجفاء والخصام بصفة عامة.. وفى كل مناسبة أشيد بزوجتى ورعايتها لابنتيها ولى، وفى

كل حين تشيد هى بى، وبحسن معاملتى لها وحنانى معها وحرصى على بيتى وبنتى، وتفسر ذلك بنشأتى فى بيت متراحم متحاب على عكس نشأتها هى فى بيت تسوده الخلافات الحادة بين الأبوين.

وتحسنت أحوالنا المادية إلى حد كبير خلال رحلة العمر.. فازداد دخلى وارتفع مرتبها وبدأنا ندخر القليل لمواجهة نفقات بنتينا الطارئة ومدارسهما وزواجهما فى المستقبل.. وأصبحت حياتنا أنشودة من الحب والتعاون والتفاهم الزوجى.. وظل الحال على هذا النحو حتى بدأت ألاحظ على زوجتى منذ حوالى عام بعض التغيرات فى شخصيتها وتصرفاتها.. وكانت البداية أن لاحظت اهتمامها الزائد بنفسها.. كما لاحظت أيضًا أنها قد بدأت تتخفف من بعض احتشامها المعتاد كما بدأت تضع الماكياج الخفيف عند خروجها ولم تكن تستعمله من قبل إلا فى البيت.. وأخيرًا بدأت ألاحظ جفاءها العاطفى معى وتهربها منى وسرحانها الطويل والتزامها الصمت معظم فترات وجودها بالبيت.. وفى جلستى الصباحية مع أمى شكوت لها من تغير أحوال زوجتى معى فخففت عنى ونصحتنى بزيادة الاهتمام بها وتخصيص وقت أكبر لها.. وفعلت ما نصحتنى به.. ولم يتغير الحال إلا قليلاً وعلمت أن أمى قد استدعتها ونصحتها بالاهتمام بى ووعدتها زوجتى خيرًا.

وكان قد لفت نظرى كذلك أنها قد أصبحت تذهب إلى العمل

مبكرة عن موعده الطبيعى بحوالى الساعة ولم تعد تنتظرنى لكى نخرج معًا كما كنا نفعل من قبل، فقررت ولا أدرى لماذا أن أراقبها ذات يوم لأعرف إلى أين تذهب فى هذا الوقت المبكر وتتبعتها عن بعد فوجدتها تتجه إلى عملها. . ولم تكن الساعة قد قاربت السابعة صباحًا، وتبعتها إلى العمل فوجدت بابه مفتوحًا ودخلت الإدارة التى تعمل بها فلم أجد أحدًا. وفتحت مكتب مدير الإدارة لعلى أجد الساعى يقوم بتنظيفه وأسأله عن زوجتى فإذا بى أراها مع مدير الإدارة فى موقف غرامى يتبادلان فيه فيما يبدو تحية الصباح بالقبلات!

ولا أدرى كم لحظة مرت علىَّ وأنا ذاهل عن كل ما حولى. . ولأننى استوعبت ما حدث انقضضت عليهما وهما يرجواننى ألا أسىء فهم ما رأيت، ولولا أن تمالكت نفسى بعض الشىء لحدث مالاتحمد عقباه ثم دفعت الخائنة أمامى وغادرت الإدارة ولم يكن قد أتى أحد أو شهد ما شهدته. .

وفى البيت أجلستها أمامى وسألتها سؤالاً واحدًا هو: لماذا؟ ماذا فعلت لك لكى تفعلى بى ذلك. . فيم أسأت إليك لكى تطعنينى هذه الطعنة القاتلة؟. لقد عاملتك بالحسنى طوال زواجنا. . ولم أقصر فى حقك يومًا ما ولم أخنك. . ولم أر فى الدنيا كلها امرأة

سواك.. فلماذا؟ ولماذا لم تطلبى منى الطلاق إذا كنت لا تحبيننى ولا ترغبين فى مواصلة الحياة معى؟

ولم تجد ما تقوله سوى أنها مرت بحالة ضعف استغلها مديرها.. واقترب منها فيها فضعفت أمامه، وأنها كانت تأمل أن تقاوم هذا الضعف وتسترد نفسها وترجع لسابق مسيرتها معى..

واتصلت بوالدتها ودعوتها للحضور وواجهتها أمامها وألقيت عليها يمين الطلاق وطلبت منها أن تصطحبها إلى بيتها وتركت لها الفرصة لجمع ملابسها، وحمدت الله أن الابنتين كانتا فى مدرستيهما فلم تشهدا هذا الموقف المخزى.. ورجعت الابنتان من المدرسة فوجدتانى مريضًا فى الفراش وحرارتى مرتفعة والعرق يتفصد منى وسألتا عن أمهما فأجبتهما بأنها فاجأتها نوبة مرض عصبية ونفسية وتستريح لبعض الوقت فى بيت أسرتها وأنهما سوف تذهبان لزيارتها كل يوم جمعة إلى أن تشفى.

وانقلبت حياتى رأسًا على عقب بعد هذا اليوم.. وظللت مريضًا سقيمًا لا أقوى على مغادرة البيت ثلاثة أيام، ولاحظت أمى شرودى وحزنى حين زرتها بعد ذلك وسألتنى مرارًا عما ألمَّ بى فلم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة وبعد إلحاح منها ومن شقيقاتى صارحتهن بأننى قد طلقت زوجتى بسبب تغيرها معى وجفائها لى ولم أزد على ذلك كلمة أخرى، وبعد ذلك بأيام كررت علىَّ أمى السؤال عن

سبب الطلاق فغلبتنى دموعى أمامها وأجبتها بعد أن تمالكت نفسى بعض الشىء.. لأننى «رجل» يا أمى.. كما كنت تقولين دائمًا عنى وأريد أن أظل كذلك إلى آخر عمرى. ففهمت بغير كلام وبكت طويلاً وقبلتنى فى جبينى ودعت لى كثيرًا بأن يخفف الله عنى همى.. وكفت عن الإشارة لهذا الأمر بعد ذلك نهائيًا وإن كان الإشفاق يطل دائمًا من عينيها كلما رأتنى.

والآن ياسيدى فلقد مضت بضعة شهور على هذا الزلزال الذى هدم أسرتى وهزّ كيانى كله.. وقد لاحظ علىّ الجميع حزنى واكتئابى وهزال جسمى.

ولقد عرفت الابنتان من أمهما وليس منى أننى قد طلقتها، وتسألاننى عن السبب فألوذ كل مرة بالصمت العاجز.. أو أقول لهما إن حياتنا معًا قد انتهت عند هذا الحد فلا تقتنعان، وتطالباننى بإقناعهما بسبب مقبول للطلاق خاصة أنهما طالبتان وقادرتان على تفهم هذه الأمور.

وأنا عاجز عن البوح لهما بالسبب الحقيقى للطلاق.. ولا أريد لهما فى نفس الوقت أن تظلماننى وتظنان بى القسوة على أمهما أو أننى ظلمتها وظلمتهما معها.. ولا أريد فى نفس الوقت أن أشوّه صورة أمهما فى مخيلتهما وهما فتاتان فى مطلع سن الشباب.. كما أننى لا أجد فى نفسى أى استعداد للصفح عن أمهما أو استئناف

الحياة معها فى يوم من الأيام بعد أن طعنت قلبى وشرفى وكرامتى.. وبعد ما سمعته منها من اعترافاتها المؤسفة خلال المواجهة.

وأنا حائر حزين ويملؤنى الإحساس بالخذلان وأتساءل عما جنيته فى حياتى لكى أواجه مثل هذا الغدر الخسيس وأنا الذى مات أبى راضيًا عنى وداعيًا لى بالستر والسعادة فى الدنيا وكنت ومازلت بارًا بأمى وشقيقاتى وتدعو لى أمى كل يوم دعاءها الصالح.. فلماذا انكشف عنى غطاء الستر.. وتجرعت هذه الكأس المرة ياسيدى؟.

إننى أريد أن أتخطى هذه المحنة وأواصل حياتى وأؤدى رسالتى مع ابنتىّ، فماذا أفعل معهما وهل أستجيب لضغطهما علىّ لكى أصارحهما بسبب الطلاق الحقيقى.. وهل يمكن أن أبدأ حياة جيدة حقًا بعد هذا الزلزال الذى هدّ كيانى؟!

ولكاتب هذه الرسالة أقول

من نكد الدنيا أن يكون الإنسان ضحية لغيره ثم يجد بين أقرب الناس إليه من يظنون به القسوة على من جنى عليه، أو أن يساء إليه أبلغ الإساءة فلا يقدر على التصريح بحقيقة ما تعرض له من أذى ويحاسبه الآخرون على رد فعله لما يتكتمه هو فى صدره حرجًا منه أو رعايةً لاعتبارات تربوية وإنسانية أهم لديه من اعتباراته الشخصية، وفى كل هذه الأحوال فلسوف يعقل المرء لسانه عن البوح بما يكابده لأنه إن لم يفعل ذلك آذى مشاعره الشخصية قبل أن يؤذى الآخرين وأساء إلى نفسه وأعزائه قبل أن يسيء لمن أخطأ فى حقه.. فكأنما يكابد ذلك الظلم المضاعف الذى أشار إليه الشاعر العربى فى قوله:

ولـم أر ظلمـا مثل ظلـم ينالنـا

يُساء إليـنا ثـم نؤمـر بالشـكر

أو بالصمت وكلاهما مر، لكنه لا حيلة لأصحاب النفوس الكبيرة سوى تجرع الصمت فى مثل هذه الظروف الشائكة ولا مفر أمامهم من الاعتصام به حفظًا للحرمات ورعايةً للمشاعر وحرصًا على معنويات الأبناء ومثالياتهم. فواصل التزامك بهذا الصمت النبيل مع

ابنتيك ياصديقى وقل لهما إن من الأسباب المشروعة للطلاق بالرغم من كراهته استحالة العشرة بين الزوجين فإذا تعذر الإصلاح وفشلت كل الجهود ولم يعد فى طاقة أحدهما أو كليهما مواصلة احتمال الحياة مع الطرف الآخر فلهما أن يتفرقا بلا ضغينة وبغير أن ينقص ذلك من كفاءة أحدهما أو حرصه على أبنائه مصداقًا لقوله تعالى ﴿ وإن يتفرقا يُغن الله كلاً من سعته ﴾.

ولقد استحالت العشرة بينك وبين أمهما ورأيتما بعد طول مجاهدة أن يستقل كل منكما بحياته عن الآخر.. ويواصل رعايته لكما بغير أن يسيء للطرف الآخر أو يذكره بسوء لديكما. والأيام كفيلة بعد ذلك بمداواة الجراح وتفهم الأبناء لبعض حقائق الحياة القاسية بغير أن يهتز رمز الأب أو الأم فى مخيلتهما.

فأما الستر الذى تتساءل فى غمار همك بأمرك ورثائك لنفسك، لماذا انكشف عنك وأنت الابن البار لأبويه والأخ العطوف لشقيقاته.. والزوج المخلص لزوجته فإن تساؤلك المؤلم له ما يبرره بالفعل وأنت الذى التزمت بمثالياتك الأخلاقية والدينية فى الحياة وتوقعت أن تجزيك عنها الأيام بالسعادة والأمان.. لكن كل إنسان فى الوجود معرض للإساءة من الآخرين ولو كان من الصالحين.. ولقد تعرض الأنبياء جميعهم للأذى من أقوامهم وهم دعاة الحق وهداة البشرية إلى الخير والصلاح.

والخطيئة فى النهاية هى عار المخطئ وليست عار ضحيتها.

وليس يعيب الإنسـان أن يغـدر بـه الآخـرون أو يتنكـروا له أو يخذلـوه وإنما يعيبه أن يقبل الخنا على نفسه أو يتغاضى عنه طلبًا للسلامة.. فارفع رأسك ولا تشعر بالانكسار والهوان لأن من أخلصت لها العشرة والود لم تحفظ لك الود ولم تبادلك إخلاصًا بإخلاص.

وثق فى أن تجربتك معها لم تذهب سدى فى النهاية فمن عرف من لا يصلحون له فلقد عرف بالتالى الصالح المنشود.. وليس يصمد لاختبارات الحياة القاسية بغير أن ينهار أمامها سوى أصحاب النفوس الكبيرة مثلك. والمثل البوذى القديم يقول لنا إن العظمة الحقيقية هى فى القدرة على احتمال المكاره.

ولو راجعت ما جرى لك فى محنتك لأدركت أن غطاء الستر لم ينكشف عنك فى واقع الأمر على عكس ما يبدو لك، فلقد اكتشفت ما تعرضت له من غدر فى بدايته وقبل أن تفوح رائحته وتزكم الأنوف وتسىء إلى كرامتك واعتبارك، كما تأكدت من ظنونك بغير أن تنفجر حولك فضيحة مدوية تشعرك بالانكسار أمام شهودها.. ووقعت الواقعة المؤلمة فى أضيق حدود العلانية ولم يشهدها سواك ولم يعرف بحقيقة الأمر سوى والدة زوجتك السابقة حين صرحت أنت لها بها، ولعل ذلك يخفف من الخسائر النفسية والمعنوية،

ويؤكد لك أن دعاء أبويك لك ومثالياتك الأخلاقية والدينية وتعاملك الأمين مع الحياة لم يذهب هباءً. . والإنسان قادر دائمًا على أن يبدأ حياة جديدة فى أية مرحلة من العمر، وأكثر الناس استحقاقًا للسعادة هم الذين اختبرتهم الحياة بالشقاء واستوفوا كأسهم المرة منه.

وسن السابعة والأربعين مناسبة تمامًا لبدء حياة جديدة لك إذا رغبت فى الزواج من جديد بشرط اختيار الزوجة الملائمة لك فى العمر والظروف العائلية والاجتماعية. . وتقبل ابنتيك مع الأيام للفكرة. . وتشجيعهما لك عليها. . وما أظن إلا أنهما سوف تشفقان عليك من وحدتك وتقبلان بها بعد حين. . والشاعر الألمانى شيللر يقول لنا إنه: «**حين يسقط البناء ويتغير الزمن تظهر حياة جديدة من بين الحطام**».

فلعل ما تستشعر مرارته الآن يكون بشيرًا لك بحياة جديدة تزهر ورودها من بين حطام التعاسة السابقة، ولعل الله سبحانه وتعالى يعوضك عمن لم تحرص عليك ولم ترع لك حرماتك بمن هى خير منها.

ولا شك فى أن حرصك على ألا تسىء إلى أم ابنتيك بالرغم من إساءتها لك وترفعك عن التشهير بها لدى ابنتيها والآخرين سيكون شفيعًا لك لدى السماء لكى تمسح عنك أحزانك وترشحك للسعادة الحقيقية فى قادم الأيام بإذن الله.

أنا رجل أبلغ من العمر ٥٦ عامًا وأعمل منذ فترة طويلة بإحدى الدول العربية ولى ابن وابنة انتهيا والحمد لله من دراستيهما الجامعية ويعملان معى الآن فى نفس البلد الذى أعمل به.

وقد مضت رحلة حياتى دون تحولات عنيفة أو منغصات كبيرة.. غير أننى أواجه الآن موقفًا يثير تأملاتى.. ويدفعنى لأن أستشيرك بشأنه. فمنذ ثلاثين عامًا ارتبطت عاطفيًا بفتاة أحببتها للغاية ورغبت بشدة فى أن أتزوجها، إلا أنها كانت تكبرنى بأربع سنوات، ووقف هذا الفارق عائقًا صلبًا دون موافقة أهلى على زواجى منها، وحاولت بشتى الطرق إقناعهم بها، إلا أنهم أصروا على موقفهم للنهاية، ولأننى بار بأبى وأمى، فلقد استجبت لهما على غير رغبتى وصارحت الفتاة بالحقيقة ونصحتها بأن تبحث عن مستقبلها وألا تنتظرنى، وانقطعت عن رؤيتها بعد ذلك، لكننى لم أنسها، ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد تزوجت وشغلت بحياتها الجديدة.

أما أنا فقد رشح لى أبى وأمى عروسًا مناسبة، وسرعان ما تزوجتها واصطحبتها معى إلى الدولة العربية التى عملت

بها.. وكلما رجعت إلى مصر فى أجازة تذكرت فتاتى الأولى واستفسرت عن طريق الأصدقاء عن أخبارها..

ومضت حياتى هادئة وبلا منغصات، والحق أننى قد وجدت فى زوجتى سيدة فاضلة تبذل كل ما فى وسعها لإسعادى كما أنها صانتنى وحمتنى من مغريات الشباب، ونشأت أبناءنا على الخلق الحميد والحمد لله على ذلك كثيراً، لكن الحياة مضت بى بالرغم من ذلك دون أن أشعر بحرارة الحب التى كنت أستشعرها مع فتاتى الأولى.

أما الموقف الذى أواجهه الآن ويثير تأملاتى فهو أن ابنى يحب إحدى زميلات أخته فى العمل حبًا كبيراً ويرغب فى الزواج منها.. وأنا ووالدته نعارضه فى هذا الارتباط لغير شىء سوى لأنها تكبره بخمس سنوات!.. وهو يصر على الزواج منها ويحاول إقناعنا بها بشتى الطرق.. ووالدته ترفض بشدة وأنا أشاركها الرفض بدافع من خوفى عليه كأب فى بعض الأحيان.. وأتذكر موقفى من أبى وأمى حين رفضا زواجى ممن أردتها لنفس السبب فى أحيان أخرى. فيرق قلبى له وأتمنى لو أحقق له أمنيته لكيلا يحرم ممن يحبها.

وقد زاد من حيرتى أن تقدم لابنتى شاب يصغرها بثلاث سنوات.. وابنتى توافق عليه وترحب به، وزوجتى ترفضه بشدة كما ترفض فتاة ابنها التى تكبره.

وأنا بالرغم من عدم موافقتى على اختيار ابنى ولا على من تقبل به ابنتى وليس فيهما أية عيوب جوهرية سوى فارق السن، فقد حاولت إقناع زوجتى بقبولهما.. لكنها ترفض رفضًا تامًا.. ونحن فى غربة والشباب المصرى المقيم هنا يرجعون إلى بلدهم فى الأجازات فيتزوجون من أقاربهم ومعارفهم فيها، ونحن لا نرجع إلى بلدنا إلا لمدة شهر واحد كل عام، وبسبب طول الاغتراب فإن صلتنا بالأقارب والمعارف فى مصر محدودة، وأخاف على أبنائى من ضياع الفرص المناسبة.. ومن غربتهم فى بيتهم، حيث أن كلا منهما الآن يسكن حجرته ولا يكلم أحدًا، كما يثير شجونى أن ما حدث لى فى الماضى وشكوت منه يتكرر الآن بنفس تفاصيله مع أبنائى، فما رأيك فى ذلك وبماذا تشير على؟.

دورة الأيام قد ترينا من أمرنا عجبًا! والحق أن مشكلة تفاوت السن بين شريكى الحياة ينبغى أن تكون دائمًا فى حدود الأمان.. أى فى الحدود التى تسمح لهما بتقارب الاهتمامات والميول والمزاج النفسى بشكل عام.. فإذا كان المبدأ العام هو تفضيل أن يكبر الفتى الفتاة التى يرتبط بها ببضعة أعوام للاعتبارات المعروفة، فليس مما يخرج أيضًا عن حدود الأمان فى بعض الحالات الاستثنائية أن تماثل الفتاة فتاها فى السن أو أن تكبره بسنوات قليلة.. والاستثناء دائمًا خروج عن القاعدة لابد أن يكون له ما يبرره، لأن قوانين الحياة الطبيعية هى الأولى بالاتباع فى الظروف العادية، وأقوى دوافع الاستثناء من القاعدة فى أمور الزواج هو الارتباط العاطفى القاهر الذى يعوِّض أو يبرر عدم الالتزام ببعض بنود القاعدة العامة لدى أصحابه.

وإذا كان هذا الاختيار العاطفى القوى لايتعارض مع أحكام العقل فى النواحى الأخرى، كاعتبارات الكفاءة العائلية والاجتماعية والسمات الأخلاقية والنفسية والعقلية، فلقد يجوز التغاضى عن فارق السن لغير صالح الفتاة فى بعض الحالات، كما يجيز بعض

الفقهاء إمامة المفضول مع وجود الأفضل أحيانًا! والأفضل دائمًا هو أن يكبر الفتى فتاته ببضع سنوات ليكون قادراً على الإمساك بدفة القيادة فى أسرته الصغيرة بالمشاورة والتعاون مع شريكته. والمهم فى كل الأحوال هو أن يعى كل طرف فى العلاقة الزوجية حقيقة دوره ويكون قادراً على النهوض به بغير التنازل عنه للطرف الآخر وبغير تطلع طرف لأداء دور ليس مؤهلاً بحكم الطبيعة وقوانين الأشياء للقيام به نيابةً عن شريكه.

ومقاومة الأهل للاختيار العاطفى للأبناء إذا لم يتعارض هذا الاختيار مع أحكام العقل بشكل صارخ، كثيراً ما يدفع الأبناء للتمسك به ويستثير لديهم الميل للتحدى لإثبات سلامة اختيارهم حتى ولو دفعهم ذلك أحيانًا إلى التغاضى عن بعض المحاذير والعيوب. فى حين قد يساعدهم تحرز الأهل فى رفض اختياراتهم، ومبادرتهم بعدم اتخاذ موقف قاطع بالرفض لها، واعتبار الأمر قابلاً للمناقشة والتفكير فيه، على ممارستهم هم أنفسهم للتفكير النقدى لهذه الاختيارات.. والتفكير النقدى هو التفكير الذى يتسم بالموضوعية ولا يقبل الأشياء قبولا مطلقًا، ولا يرفضها أيضًا رفضًا مطلقًا، وإنما يرى فيها المزايا والعيوب ويوازن بينها ويتخذ صاحبه قراره على أساس ترجيح كفة هذا على ذاك.. وفترة الخطبة فى الأصل هى فترة اختبار للمشاعر وتوافق الميول والرؤى لدى

الخطيبين.. ولا بأس بأن «يختبر» ابنك صدق مشاعره وعمق توافق ميوله مع ميول فتاته خلال فترة ملائمة للخطبة قد تسمح له بتقدير الأمور تقديراً أكثر موضوعية منه وهو واقع تحت ضغط الرفض المطلق لاختياره من جانب أبويه، وما يثيره لديه ذلك من تحد قد يغمض العين معه عما فى وجهة نظرهما من استشراف للمستقبل وحرص على مصالحه.. فإذا جاءت نتيجة الاختبار لصالح فتاته فلا شىء يمنع استكمال المشوار معها، وتسليم الأهل له برغبته، لأن هدفهم فى البداية والنهاية هو سعادته وصلاح أمره، وإذا لم تجئ النتيجة لصالحها كان قراره نابعًا من تجربته وليس مفروضًا عليه بالقهر من أبويه، فلا يندم على فوات الفرصة ولا يأسى عليها.

ونفس المنطق يمكن التعامل به مع ابنتك بغير قهر لإرادتها، فماذا يمنعك أنت وزوجتك ياسيدى من منح ابنك وابنتك حق التجربة المشروعة فى الإطار العائلى مادام اختيارهما لا يعيبه شىء جوهرى ـ كما تقول ـ سوى فارق السن؟

أكتب إليك قصتى لعلها تفيد غيرى، وتجنبهم العثرات، فأنا رجل فى الثالثة والأربعين من العمر.. ارتبطت خلال دراستى بالجامعة بزميلة لى، وعشت معها قصة حب عميقة، وتعاهدنا على الزواج بمجرد التخرج.. وتخرجت وخطبتها وأديت الخدمة العسكرية.. ولا شىء يشغل تفكيرى سوى فتاتى، ثم تزوجنا وبدأنا حياتنا معًا، وعشنا قصة سعادة رائعة.. وأنجبنا طفلين جميلين، اكتملت بهما أنشودة الحب القديم ومارست إلى جانب عملى بالوظيفة.. عملاً حرًا ليساعدنى على تدبير احتياجات أسرتى الصغيرة. فى حين فضلت زوجتى الحصول على أجازة بدون مرتب لرعاية أطفالنا وبيتى. ونجح عملى الحر وتوسعت فيه حتى جاءت اللحظة التى ينبغى لى الاختيار فيها بين التفرغ له أو التمزق بينه وبين الوظيفة، فاخترت الاستقالة والتفرغ لعملى.. وشجعتنى زوجتى على هذا القرار.

وأثبتت الأيام بُعد نظرى ونظر زوجتى فى هذا القرار. فلقد ازدهر عملى وحقق نتائج ممتازة، وعمل معى فيه صديق قديم متزوج، فازداد تقاربنا العائلى.. وأصبحنا نحن الأربعة كأسرة واحدة، نلتقى كثيرًا ونتبادل الزيارات العائلية ونقضى كل أوقات فراغنا معًا، فبدأ التقارب بينى وبين زوجة صديقى

يزداد بلا احتراس، وكانت البداية مكالمة تليفونية بينى وبينها ليتنى لم أتحدثها ثم تعددت المكالمات، وبدأنا نستشعر خطورة الطريق الذى ننزلق إليه وأثره على حياة كل منا العائلية، فحاولت زوجة صديقى التوقف والابتعاد.. ولم أحاول أنا ذلك للأسف بالرغم من إدراكى للهوة التى أسير إليها.. فاستمرت المكالمات والاتصالات وتبادل النظرات الخفية خلال اللقاءات العائلية، وتمزقت بين مشاعرى تجاه زوجتى التى مازلت أحمل لها الحب القديم، وبين رغبتى فى تلك السيدة.. وتمزقت بين ضعفى الذى يغرينى فى الاستمرار فى اللعبة القذرة، وبين إحساسى القاتل بأننى خائن لزوجتى ولصديقى ونذل شديد النذالة.. واضطربت أعصابى وأحوالى النفسية، وقل تركيزى فى عملى، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ التوفيق يتخلى عنى فى العمل.. وواجهت سوء حظ غريب فى أكثر من عملية كان مقدرًا لها النجاح مائة فى المائة فباءت بالخسارة وأخفيت عن زوجتى اضطراب أحوال العمل إشفاقًا عليها.

وحاولت قدر جهدى أن أتخفى عنها «بنذالتى» الشخصية معها ومع صديقى، لكنها أحست بقلب المرأة أن هناك شيئًا غير طبيعى فى حياتى، ولم تفاتحنى فى ذلك.. ولم تحاول استجوابى أو أن تشكو لأحد من أهلها أو أهلى إلى أن تأكدت من ظنونها وعرفت بالقصة كلها.. فآثرت ألا تفضحنى وألا تثير الزوابع

حولى.. وإنما عبرت عن موقفها مما يجرى بالنظرات القاتلة التى تجمع بين الازدراء.. والأسف والكبرياء. واكتفت بإبداء الجفاء المهذب تجاه تلك السيدة وإشعارها بأنها لم تعد صديقة لها كما كانت من قبل.. وإنما أصبحت غير مرغوبة من جانبها فى بيتنا أو حياتنا، والتقطت الأخرى الإشارة فانزوت وابتعدت عنها وعنى وكفت عن الاتصال بى أو الرد على اتصالاتى.

ثم علمت زوجتى باضطراب أحوال العمل.. ومانتج عنه من خسائر، فشعرت أكثر بأننى غير أمين عليها ولا على مستقبل أبنائنا.. وازدادت الفجوة بيننا.. وشعرت أنا بالانكسار أمامها، وأصبحت لا أقوى على النظر فى عينيها، إننى أحاول الآن إنقاذ ما يمكن إنقاذه من عملى.. ولن يكون ذلك مستحيلاً بالصبر والكفاح، لكن المشكلة هى أننى لا أستطيع أن أحيا مع زوجتى للنهاية وأنا منكس الرأس شاعراً بالانكسار والذلة أمامها.

فبماذا تنصحنى أن أفعل.. هل أطلقها لكى تعيش حياتها كما تشاء. وتتفرغ لرعاية الأبناء.. أم هل أسعى للعمل فى الخارج لفترة طويلة أغيب خلالها عنها إلى أن تنسى ما حدث وتكف عن توجيه نظراتها القاتلة إلى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

لست فى حاجة إلى طلاق زوجتك مادامت لم ترغب فيه، ولم تطالبك به.. ولا إلى هجرها والسفر لفترة طويلة بدعوى أن تنسى هى خلالها ما كان من أمرك، وإنما أنت فى حاجة فقط لأن تعترف لنفسك أولاً بفداحة الجرم الذى ارتكبته فى حقها.. وفى حق صديقك وفى حق مثاليات الحياة والأخلاقيات السليمة.. وأن تستشعر الندم الصادق عليه.. ويصح عزمك على التطهر منه والتكفير عنه.

وحين تفعل ذلك.. وتلتزم الطريق القويم فى حياتك.. وتستشعر زوجتك جديتك.. فلسوف تجد أنت القدرة على النظر فى عينيها دون أن تحتاج لأن تنكس رأسك أمامها، ولسوف تستعيد زوجتك ثقتها فيك واحترامها لك وإحساس الأمان معك.. وتسلم بما يسلم به أصحاب القلوب الحكيمة من أنه لا يُلام المرء على أمر قد تاب عنه وندم عليه.. ولم يرجع إليه مرة أخرى، أما قبل ذلك فإن نظراتها القاتلة هذه هى عقابها لك على جريمتك المضاعفة فى حقها.. وهى مضاعفة لأنك لم تكتف بخيانة عهدك معها بالإخلاص لها حتى نهاية العمر.. وإنما نكبتها فى إخلاصك لها

«وإخلاص» الصديقة السابقة كذلك لها.. ثم فى مثالياتك وأخلاقياتك التى سمحت لك بخيانة صديقك والعبث مع زوجته.

ومالا يدركه بعض الرجال هو أن طعنة الرجل لزوجته بخيانتها مع أخرى إنما تتضاعف فجيعتها بها حين تكون هذه الخيانة مع من كانت تتوسم فيها الصداقة والإخلاص لها.. أو كانت من أقرب الناس إليها.. إذ تشعر المرأة فى هذه الحالة وكأنها قد فجعت فى إخلاص طرفين توسمت فى كل منهما الحب والإخلاص لها.. وليس فى طرف واحد هو زوجها.. وتستشعر الرثاء مضاعفًا لنفسها ولأن أملها فى زوجها كان أكبر من الأمل فى غيره.. فإنها تُحمله عادة المسئولية الكاملة عن الخيانتين اللتين تعرضت لهما فى آن واحد.. وتود لو كان قد أعفاها على الأقل من مضاعفة غدره لها بغدر أقرب الصديقات إليها.. ناهيك عما فى خيانتك لها مع زوجة أقرب الأصدقاء إليك من دلالات كريهة على مستوى قيمك الأخلاقية والدينية، مما لا تسعد به أية زوجة أو ترضى عنه.

ولأن لكل جريمة عقابًا ـ فقد اختارت زوجتك أن تعاقبك على خيانتك لها وفجيعتها فى مثالياتك الأخلاقية.. عقابًا معنويًا قد يراه البعض هينًا.. ويراه ذوو الألباب أشد وطأة من الناحية المعنوية من غيره. ذلك أنه يعكس إحساسها بسقوط اعتبار زوجها لديها بغير كلام ولا عواصف مزلزلة. ومع ذلك فإننى معجب بنبل تصرفها

معك بعد اكتشافها لأمرك وترفعها عن إثارة الفضائح الشخصية حولك.. وتسترها عليك بدلاً من الإساءة إليك، وإسقاط اعتبارك فى نفوس من هم حولك.. فإذا كنت تشعر بالانكسار أمامها فلأن الإنسان لا ينال الاحترام من الآخرين بالضغط أو الإكراه.. ولا بالاستجداء، وإنما ينبع الإحساس بالاحترام ذاتيًا تجاه الآخرين حين يلمس المرء التزامهم بالطريق القويم فى الحياة، وتصرفهم فى حياتهم تصرفات تعكس اتزانهم النفسى والخلقى والتزامهم باحترام النفس وحقوق الغير.. والطريق الخاطئ متاح دائمًا للجميع، وهو الطريق السهل الذى لا يرد فيه المرء نفسه عن إغراء أو مصلحة عابرة أو متعة ولو كانت محرمة حتى ولو تعارضت مع حقوق الآخرين، أما الطريق الصعب فهو الطريق الذى يجاهد الإنسان فيه نفسه ويردها عن رغائبها غير المشروعة.. ويكون جزاؤه عن جهاده فيه هو الرضا عن النفس واحترام الآخرين للمرء.. والمضى فى الحياة بغير مكابدة الإحساس المرير بالذنب والخوف من عقاب السماء وغدر الأيام، وليس من حق من يختار الطريق السهل أن يأسف على سقوط اعتباره لدى الآخرين، ولا أن يلومهم على ذلك، وإنما من واجبه أن يلوم نفسه على أن وضعها موضع اللوم والازدراء من الآخرين، وأن يجاهد بإخلاص ليردها عن كل ما يسىء إليها، فيكتسب تلقائيًا ثقة الغير واحترامهم.

وأنت تستطيع أن تفعل كل ذلك بغير كلام.. وتستطيع أن تعبر لزوجتك بالتصرفات والأفعال عن ندمك على ما سبق منك فى حقها.. وسعيك بجدية لإصلاح أحوال العمل والتفرغ له.. وصبرك عليها إلى أن تأسو جراحها.. وتصفح عما كان من أمرك.. فتختفى نظراتها القاتلة تدريجيًا وتحل محلها نظرة «الصفح الجميل» الذى قال إمام المتقين على بن أبى طالب فى تفسيره «إنه الرضا بغير عتاب»، فترفع أنت رأسك فى مواجهتها.. وتسقط هذه الصفحة الكريهة إلى الأبد من ذاكرتها وذاكرتك!



أنا فتاة فى التاسعة عشرة من عمرى لى من الأخوة أخ وأخت يكبراننى، وأخت تصغرنى، وقد رحلت أمى عن الحياة وأنا طفلة فى الخامسة من عمرى وكانت وفاتها مفاجئة ولم يمهلها العمر لكى ترعى أبناءها الأربعة، أو لكى أرتوى من عطفها وحنانها.. فلم تبق لى منها سوى ذكريات غائمة غير محددة، فأتذكرها مثلاً حين كانت تغنى لى أو حين كانت ترجع من العمل كل يوم ومعها بعض البسكويت والحلوى لى ولإخوتى، أو حين كانت تنصحنى بألا أنام أبدًا على بطنى أو على جنبى الأيسر وبأن أنام دائمًا على ظهرى أو على جنبى الأيمن، أو حين كانت تعاقب أخى الذى يكبرنى لعدم أدائه الصلاة فى موعدها عقب الأذان مباشرة.. أما ملامحها الشخصية فإننى لا أتذكرها للأسف.. ولم أعرف شكلها فيما بعد إلا من الصور الفوتوغرافية، كما أنى لا أتذكر أننى قد حزنت ليلاً عند وفاتها.. فلقد كنت طفلة صغيرة وكل ما عرفته وقتها هو أنى لن أر أمى.. ولن أنطق بكلمة «ماما» مرة أخرى.

وكان أبى حين رحلت أمى عن الحياة فى التاسعة والثلاثين من عمره شابًا قويًا ووسيمًا. وبعد وفاتها نصحه كثيرون من الأهل والأصدقاء بأن يتزوج من جديد، وكان يستطيع

ذلك بالفعل ويتركنا فى رعاية جدتنا ويتزوج هو فى بيتنا لكنه لم يشأ أن يفعل، وكره أن يأتى لنا بزوجة أب قد لا تكون أمينة علينا.

وراح أبى يعمل ويشقى لإعالتنا ورعايتنا وحده ومضت بنا الأيام وكلما تقدمت فى العمر إزداد إحساسى بأهمية وجود الأم فى حياتنا، وازداد افتقادى لها وبدأت أشعر بالحساسية تجاه كل شىء إلى أن بدأت أشعر بأن أبى يفرق فى المعاملة بينى وبين أختى الصغرى وبأنه يفضلها ويفضل أخى الأكبر علىَّ، ومع الأيام ازداد شعورى بالظلم وبعدم الاهتمام بى وبأننى غير مرغوبة فى البيت واشتدت حاجتى إلى الأم فى حياتى، وكثيراً ماقلت لنفسى إن أمى لو كانت على قيد الحياة لما حدث لى شىء من ذلك.. وتضخم إحساسى بالظلم والتفرقة بينى وبين أخوتى من عدة تصرفات صغيرة، وبدأ هذا الإحساس يتعقد داخلى حتى كاد يتحول إلى مايشبه الكره لأختى الصغرى وأخى الأكبر.. بل ولأبى أيضًا! حتى تمنيت أن يأتى شخص ليتزوجنى ويأخذنى معه إلى بلد آخر بعيداً عن بيتى، وحتى فكرت كذلك ذات يوم فى الانتحار تخلصًا من حياتى ومشاكلى!

وكثرت المشاحنات بينى وبين أختى الصغرى وأخى.. وتدخل أبى

فيها كلما شكتنى إليه أختى.. وخُيل إلىّ أنه ينصفها دائمًا على حسابى، فازددت إحساسًا بالظلم، وكلما عاتبت أبى على ذلك فى أوقات الصفاء يقول لى إنها الأصغر منى.. وإن أمنا قد رحلت عنها وهى طفلة وليدة فى عامها الثانى أما أنا فقد تمتعت بحنان أمى بضع سنوات..

ولم يكن عقلى يقتنع بهذه الحجة.. فازددت ضيقًا بكل شىء وشعوراً بالظلم، وتكررت المشاحنات بينى وبين أختى وأخى.. إلى أن حدثت مشكلة جديدة بينى وبين أختى وتدخل أبى بيننا كالعادة.. فلم يحكم لها أو لى كما كان يفعل.. وإنما جمعنا نحن الإخوة الأربعة جميعًا وقال لنا وهو حزين للغاية: لماذا تثيرون هذه المشاكل بينكم دائمًا ولماذا لا تحبون بعضكم البعض وتتكاتفون جميعًا فى مواجهة الأيام وليس لكم فى الحياة أحد غيرى؟

ثم سكت لحظات وقال لنا بصوت أكثر حزنًا إنه مضطر لأن يصارحنا بما كان يكتمه عنا إشفاقًا علينا، وهو أنه مريض بفيروس الكبد الوبائى «سى» فى مراحله الأولى.. ويشعر بالقلق على مصيرنا إذا رحل عن الحياة ولسنا على ما يحب لنا أن نكون عليه من حب ووئام، ولهذا فهو يطالبنا بأن نحب بعضنا بعضًا ونتساند لأن كل إنسان من الأهل مشغول بأمره وعائلته ولن يجد الوقت للاهتمام بأمرنا من بعد أبينا.. وتركنا أبى ودخل حجرته فهرولت إلى

حجرتى وأنا أشعر بالاختناق وأغلقت بابها علىَّ وانخرطت فى البكاء. . وشعرت بأسى شديد لأبى وتذكرت كيف كان يعاملنى هذا الرجل الطيب وكيف كان يخاف علىّ ويدافع عنى. . وتذكرت أشياء كثيرة لم أتذكرها من قبل من مزايا هذا الرجل وتضحياته الكبيرة من أجلنا وتخيلت حالى لو فقدته وكيف سيكون شكل الحياة بدونه. . ودعوت الله من أعماق قلبى أن يحفظه لنا. . وأن يجعلنى فداء له لكى يعيش ويواصل رعاية أخوتى، وعجبت لنفسى كيف كرهت ذات يوم هذا البيت الجميل الذى أعيش فيه، وشعرت بتفاهة كل الأسباب التى دعتنى من قبل للضيق بالحياة فيه وللإحساس بأن أبى يظلمنى. . وحين خرجت من غرفتى بعد وقت طويل وجدت التأثر واضحًا على وجوه إخوتى ورحنا نتبادل نظرات الحب والأخوة، وليس نظرات الضيق والتحدى السابقة.

وأنا أكتب رسالتى لك هذه الآن كرسالة اعتذار منى عن كل ما فكرت فيه من قبل تجاه أبى وبعض إخوتى، ولكى أعترف لنفسى بأنه لا شىء فى الدنيا يعدل دخول أبى علينا من باب البيت وجلوسه بيننا، وأيضًا لأننى أريد بعد ذلك أن أعرف كل شىء عن هذا المرض ما هى مسبباته وأعراضه وعلاجه وهل يمكن الشفاء منه فى مراحله الأولى خاصة أن الفيروس كما قال لنا أبى مازال كامنًا وغير نشط؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

حين تكون الشمس ساطعة والجو صحوًا قد يتلاحى شخصان فى الطريق لأتفه الأسباب، وربما تماديا فى حمق الخلاف لما هو أكثر من الملاحاة.. فإذا تجهمت السماء فوقهما فجأة وزمجرت العواصف وهطل المطر سيولاً عليهما.. فلقد يسرعان بالاحتماء منه تحت أقرب مظلة.. وربما تعاونا على ذلك وهدأت ثائرتهما مع اشتداد العاصفة واقتراب الخطر واكتشاف أن ما أثار خلافهما من قبل لم يكن يستحق منهما بعض ما جرّهما إليه.. وربما استشعر كل منهما فى الآخر جوانبه الطيبة التى غابت عنه فى ذروة الخلاف، ولقد يغادران المكان بعد هدوء العاصفة وقد صفت نفساهما كما صفت السماء فوقهما بعد التجهم.

وهذا هو ما يحدث غالبًا بين البشر حين يواجهون خطرًا مشتركًا ينسيهم خلافاتهم العابرة ويوحّد مشاعرهم فى مواجهته.

وهو ما حدث أيضًا لك ولإخوتك حين اضطر والدكم الطيب لأن يصرّح لكم بما كان يكتمه عنكم من حقيقة مرضه. عسى أن تترفعوا عن الخلافات الصغيرة وتصفو مشاعركم الأخوية من

شوائبها. ولاشك فى أنه كان يفضّل لو ظل طاويًا صدره على همه بأمره بعيدًا عنكم لكى يعفيكم من القلق على صحته ومن الإحساس القاتل بالخوف من المستقبل استمرارًا لتضحياته من أجلكم حين حرم نفسه من الزواج خوفًا من أن تشقوا بزوجة أب لا تكون رحيمة بكم.. فكيف يُساء فهم مثل هذا الأب الطيب من أقرب الناس إليه، وأجدرهم بتقدير تضحياته من أجلهم؟

لقد غاب عنك يا آنستى أن هذا الأب قد واجه محنة ثقيلة بفقد الزوجة ونهوضه برعاية أربعة أبناء وحده دون سند يخفف عنه هذا العبء.. أو يتولى من وجوهه ما لا تنهض به إلا الأمهات الطيبات. ولأن كل إنسان مُيسر لما خُلق له فليس من المستبعد أن يعجز والدك فى مثل هذه الظروف عن الوفاء ببعض الاحتياجات النفسية والعاطفية لأبنائه وخاصة البنات منهم للأسباب المعروفة، ويصبح من العدل والرحمة أن يتفهم الأبناء أوجه قصوره المحدودة هذه ويلتمسوا له العذر فيها.

غير أنى ألتمس لك بعض العذر فى مشاعرك غير الناضجة فى السابق تجاهه لصغر سنك وقلة خبرتك وظروف حرمانك من عطف الأم وحنانها فى الطفولة المبكرة.. فلا بأس إذن بما حدث مادمت قد تطهرت من المشاعر السلبية السابقة تجاه أبيك وبعض إخوتك، واكتشفت عمق حب أبيك لك ولكل إخوتك.. وأدركت قيمة

تضحيته الإنسانية من أجلكم جميعًا.. وراجعت موقفك من الأشياء وعرفت بنظرتك الجديدة أنه لا شىء فى الحياة يعدل وجود أبيكم بينكم يظلكم بظله ويتدفق عليكم ينبوع عطفه وبره.

وقديمًا قال الشاعر والأديب جبران خليل جبران: **لا يُعرف عمق المحبة إلا ساعة الفراق.**

ولقد أضيف إلى هذه العبارة الحكيمة، أن عمق المحبة قد لا يُعرف أيضًا إلا حين يتهدد الخطر من نحبهم.. فيصهر الخوف عليهم مشاعرنا تجاههم ويخلصها مما علق بها من شوائب فتسيل صافية خالصة إلى مصبهم.. فأما المرض وأسبابه وأعراضه وعلاجه فلقد نشر عنه الكثير، وأما أمل الشفاء منه فهو كبير والحمد لله خاصة وهو فى مراحله الأولى.. كما أن الطب يسجل انتصارًا جديدًا كل يوم فى وسائل العلاج منه.. ولن يطول الزمن حتى يحقق النصر النهائى عليه قريبًا بإذن الله.. ولعل أفضل ما تعينين به أنت وإخوتك أباكم فى معركته ضده، هو أن تتحابوا وتتكاتفوا وتترفعوا عن التوافه وصغائر الأمور لكى ترتفع روحه المعنوية.. ويتحقق له الشفاء العاجل بإذن الله.



أكتب إليك بعد تفكير طويل لأروى لك قصتى حتى ترشدنى إلى الحل السليم.

فأنا شاب أبلغ من العمر ٢٥ عامًا، ترجع قصتى مع الحياة إلى جذور بعيدة، فلقد كانت أمى زوجة لأقرب أصدقاء أبى إليه.. ثم رحل هذا الصديق عن الحياة تاركًا وراءه زوجته وابنًا وابنة، وواجهت أمى بعد وفاة زوجها ضائقة مالية شديدة لم تستطع مواجهتها، فتزوجها أبى بالرغم من معارضة أهله لهذا الزواج وأنجبنى منها.. وبعد فترة من زواجهما أنشأ معها تجارة لتوزيع بعض منتجات شركات الإنتاج، ونجحت تجارتهما التى كانت باسم أبى.. وبعد خمس سنوات نشبت المشاكل بينهما وانتهزت أمى - كما عرفت فيما بعد - فرصة سفر أبى لإحدى المحافظات واستولت على بضائع تجارته وقامت بإخفائها عند إحدى قريباتها، وتفاقمت المشاكل بينهما وانتهى الأمر بطلاقهما وتنازل أبى لها عن تجارته.. وعن السيارة وشقة التمليك اللتين كتبهما من قبل باسمها. وغادرنا أنا وأبى بيت الزوجية لا نملك إلا ملابسنا، وأقمنا، وأنا طفل فى السادسة من عمرى فى بيت جدى، والتحق أبى بالعمل فى إحدى الشركات لمدة ثلاث سنوات، ثم أنشأ مع زوج إحدى عماتى تجارة جديدة، ورفض أبى الزواج مرة أخرى خوفًا من

أن يأتينى بزوجة أب تسىء معاملتى. . وتمتعت فى حياتى ببيت جدى بعطف أبى وحنان عماتى وأعمامى الذين يقيمون فى نفس العمارة. . إنسانة واحدة لم أتمتع بحنانها ولم أرها رؤية العين، منذ الانفصال، هى أمى!! فلم تسأل عنى فى يوم من الأيام ولم تسع لرؤيتى. . بل رفضت أيضًا ـ كما عرفت ـ أن ترانى حين أرسل إليها أبى مع أحد أصدقائى يبلغها بحاجتى النفسية إلى حنانها ورؤيتها.

ومضت بى الأيام وأنا يتيم معنويًا بالرغم من وجود أم لى على قيد الحياة، وتقدمت فى مراحل الدراسة، وحصلت على الثانوية العامة بمجموع ٩٥,٥٪ والتحقت بالكلية العملية المرموقة وتفوقت أيضًا فى دراستى بها، ونشأت ملتزمًا دينيًا، وخلال هذه السنوات كانت تجارة أبى وزوج عمتى قد نجحت وأتت بثمارها، فكانت هدية أبى لى بعد التخرج شقة تمليك لكى أتزوج بها حين يأتى الأوان. . وإلى جانب الشقة فاجأنى أبى بدعوتى لأداء العمرة معه مكافأة لى على نجاحى وتفوقى.

وفى إحدى الأسواق بالأراضى الحجازية لفت نظرى وأنا واقف إلى جوار أبى وجود سيدة ورجل يبدو من ملامحهما أنهما مصريان ولا يكفان عن التحديق فينا باهتمام غريب، فلفت نظر أبى إليهما وسألته عما إذا كان يعرفهما، فما إن رآهما حتى توجه ناحيتهما وهو

يجرنى معه وصافحهما، ودعانى لمصافحتهما، وعرّفنى بهما فإذا بهما خالتى وزوجها!

ودعاهما أبى لتناول الغداء معنا بأحد المطاعم.. وعلى مائدة الطعام راحت خالتى تتوسل لأبى أن يأخذنى بعد عودتنا لمصر إلى زيارة أمى التى تعانى بعض المشاكل الإنسانية والصحية.. وتحدثت خالتى طويلاً عن معاناة أمى مع أخى وفشل أختى فى الدراسة وسوء حظها فى الزواج الذى أوقعها فى زوج يسىء معاملتها إلى حد التطاول عليها بالسب والضرب، ومرض أمى بالسكر وسوء حالتها الصحية وكيف أنها قد اعترفت بظلمها لأبى ولى، وتقصيرها معى وعدم اهتمامها بالسؤال عنى طوال السنوات الماضية، ولكن كبرياءها كان يمنعها من قبل من التصريح بذلك، وانتهى اللقاء بيننا بوعد من أبى لخالتى بأن يصطحبنى بعد العودة لزيارة أمى، ووصل ما انقطع بينى وبينها.

ورجعنا إلى بلدنا، وراح أبى يحاول إقناعى بزيارة أمى فلم أجد فى نفسى أية رغبة فى ذلك، وصارحته بأننى لا أريد أن أزورها ولا أشعر بافتقادها بعد أن أهملتنى ١٩ عامًا كاملة وانصرفت عنى..

ولم ييأس أبى من محاولة إقناعى.. وبلغ فى توسلاته إلىَّ لكى أفعل ذلك أن قبَّل رأسى داعيًا لى الله أن يهدينى سواء السبيل.

واختتم محاولاته بأن تركنى لنفسى ونصحنى بالسفر لعدة أيام إلى

فايد لكى أخلو بنفسى فى قرية سياحية هناك وأفكر تفكيرًا هادئًا ثم أرجع منها بقرار سليم.. وشكرته على نيته الطيبة، وسافرت بالفعل لعدة أيام وحاولت أن أتجرد من مراراتى القديمة تجاه أمى، وانتهت الرحلة ورجعت إلى بيتى دون التوصل لهذا القرار.

إن احدًا من أهل أبى لم يذكر أمى أمامى ذات يوم بسوء، ولا فعل ذلك أبى لكنى لم أستطع بالرغم من ذلك أن أغفر لها إهمالها لى ورفضها لرؤيتى طوال السنوات الماضية.. بل إننى لم أغفر لها أيضًا افتعالها للمشاكل التى أدت لانفصالها عن أبى وحرمتنى من الحياة الطبيعية بينها وبينه..

كما لم أغفر لها مباعدتها بينى وبين إخوتى منها حتى نشأنا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر..

إن نفسى مازالت مملوءة بالمرارة تجاهها.. وأبى يُلح علىَّ بأن أنسى، وبأن أكون بارًا بأمى.. لكنها لم تعطنى من حنانها شيئًا.. فكيف أعطيها أنا من برى؟ إننى حائر ومتردد، فبماذا تشير علىّ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

من حقك ياصديقى أن تتجدد المرارة القديمة فى نفسك تجاه والدتك حين تثار قضية وجودها فى حياتك مرة أخرى بعد هذه السنوات الطويلة من الغيبة.. والاختفاء.

ومن حقك أيضًا أن يكون قرارك بالرفض المطلق هو استجابتك الأولية لدعوتك إلى زيارتها بعد هذه القطيعة الطويلة.

فمثل هذا القرار الانفعالى هو رد الفعل الطبيعى لهذه الدعوة التى تنكأ الجراح القديمة لديك. وكثيرًا ما نُعبّر بمثل هذا الرد الانفعالى عن مشاعرنا البدائية تجاه الأحداث والأمور التى تثير حنقنا أو تشعرنا بالغصة فى حلوقنا تجاه من أساءوا إلينا، غير أننا ـ على الناحية الأخرى ـ كثيرًا ما نراجع أنفسنا بعد فترة الاستسلام المبدئية لهذه المشاعر الانفعالية ونروّض انفعالاتنا الجامحة.. ونكبحها بلجام الدين والعقل والعدل والرحمة.. ونحاول أن نفكر فيما أثار حنقنا بروية، وأن نجنب تفكيرنا فيه دواعى التأثر بانفعالاتنا تجاهه.. لنتوصل فى النهاية إلى ما لا يتجافى مع القيم الدينية والأخلاقية من قرارات عادلة. ولن نكون بشرًا كالبشر لو لم تتفجر

فى البداية انفعالاتنا الجامحة هذه تجاه ما يجرح مشاعرنا وكرامتنا وينكأ جراحنا، أو يستفز ذكرياتنا الأليمة. ولن نكون من الصالحين الذين يدعون ربهم فى العشية والأسحار أن يجنبهم مزالق السوء ويحميهم من غدر الأيام لو لم نراجع أنفسنا بعد هذه الانفعالات الأولية ونكظم غيظنا ممن أساءوا إلينا ونهتد بالدين والحق والرحمة فى مواقفنا منهم.

ولهذا فلا لوم عليك فى رفضك الانفعالى الاستجابة لنداء زيارة والدتك بعد ١٩ عامًا من انقطاعها عنك دون سبب مفهوم لديك أو عذر مقبول منها.

لكنى سوف ألومك بكل تأكيد إذا تحجرت عند هذا الموقف الأولى، وتمسكت به بعد فترة رد الفعل التلقائية لهذه الدعوة المجددة للأحزان والأشجان، ذلك أنه قد يكون مقبولاً أن نعامل كل البشر بالمبدأ الذى تتعامل به الدول فيما بينها وهو مبدأ المعاملة بالمثل، لكن ليس من المقبول أبدًا أن نتعامل به مع آبائنا وأمهاتنا وأبنائنا وذوى رحمنا.

فأما أبناؤنا فإن فطرتنا تقهرنا على الرفق بهم والحرص عليهم حتى ولو لم يُقدروا لنا هذا الحرص.. أو لم يكافئونا عليه ببرهم بنا.. وأما آباؤنا وأمهاتنا فنحن مأمورون بأن نترفق بهم ونحسن صحبتهم حتى ولو جاهدونا على ألا نعبد الله سبحانه وتعالى.

وأنت تقول إنك قد نشأت ملتزمًا دينيًا، وكانت مكافأتك على تخرجك وتفوقك زيارة بيت الله الحرام وقبر رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه فكيف يغيب عنك إذن أنك تقترف إثمًا عظيمًا برفضك زيارة أمك فى ضعفها وحاجتها إليك، حتى ولو كانت قد تخلت عنك وباعدتك وهى فى عنفوانها وقوتها؟

إنك لا تستطيع معاملتها بالمثل.. ولا حتى «عقابها» على ما قصرت فيه من حقك، بحرمانها منك أو من رؤيتك حين توجه إليك النداء، لأنك لا ترجو بزيارتها شيئًا من رضاها أو حنانها الذى حرمت منه.. وإنما ترجو بها فقط رضا خالقك سبحانه وتعالى وأن تعفى نفسك من إثم عقوقها حتى ولو كانت قد عقتك من قبل، مادامت قد ندمت على ما اقترفت فى حقك ورغبت فى التكفير عنه.

ومن رحمة ربنا بنا أنه لا يعاقبنا على ما يمور فى صدورنا من انفعالات سلبية تجاه الغير ما لم نعبر عنها بالأفعال والتصرفات، وأنت لست مطالبًا فى النهاية بأن ينفجر فى قلبك ينبوع الحب لأمك كما يتدفق فى صدر الابن البار تجاه أمه الرؤوم العطوف التى رعته صغيرًا وأحبته كبيرًا، وإنما بأن تترفق بها وتسمع دفاعها عن نفسها وتبريرها لمجافاتها لك وانقطاعها عنك طوال السنوات الماضية، فلقد يتضح لك أن لديها بعض ما يبرر تقصيرها فى حقك من وجهة

نظرها.. ولقد يكون كل مالديها هو الإقرار بخطئها معك وتقصيرها فى حقك ورجائُها لك أن تصفح عما كان من أمرها وتغفره.

والحقيقة على أية حال يمكن النظر إليها من أكثر من زاوية للرؤية.. وأنت تقول إنك لم تسمع من أبيك وأعمامك وعماتك كلمة سوء عن أمك طوال حياتك معهم.. وقد يكون ذلك صحيحًا.. ولقد يكون والدك قد أحسن إليك بعدم الإساءة إلى رمز الأم فى مخيلتك كما ينبغى للآباء والأمهات الصالحين أن يفعلوا مع أبنائهم.. لكنك على الناحية الأخرى قد علمت من أمرها الكثير مما أسهم فى تشكيل رأيك السلبى فيها إلى جانب غيابها عنك، كقصة زواجها من أبيك بعد صديقه الراحل.. وقصة إخفائها بضائع تجارته واستيلائها على الشقة والسيارة والتجارة، وقصة رفضها الاستجابة لدعوة الأب لها لزيارة طفلها المحروم من أمه..

فكيف عرفت إذن كل هذه الأمور إن لم يكن قد جرى بالضرورة حديث لا مفر منه لتبرير يتمك المعنوى مع وجود أمك على قيد الحياة؟ إننى أومن بأنه لاشىء فى الدنيا يمكن أن يبرر لأم أن تتخلى عن صغارها بلا أسباب قهرية أو أن تكرر معهم سيرة إناث الضفادع التى تضع بيضها فى المستنقع ثم تهجر صغارها وتتركها تكافح أسباب الموت بمفردها.

لكنى أومن أيضًا بأنه لاشىء فى الحياة كذلك يمكن أن يمنع ابنًا

من تلبية نداء أم اعترفت كما تقول شقيقتها بخطئها فى حقه وندمت عليه وترجو أن ترى ابنها وتشرح نفسها له.

ولست أنصح بأية حال من الأحوال إذا استجبت لندائها كما ينبغى لشاب ملتزم دينيًا مثلك أن يفعل، بالتحقيق بأثر رجعى فيما حدث بين أبويك، ولا بمحاكمة الماضى وإصدار الأحكام القاسية عليه.. وإنما فقط بقبول اعتذارها إذا اعتذرت والصفح عما جنت فى حقك، أو بسماع تبريراتها إن لم تعتذر لك بتحفظ لا يحرمها حق الدفاع عن نفسها من ناحية ولا يورطك فى سماع ما يسىء إلى أبيك أو يجرح مشاعرك تجاهه من ناحية أخرى.

فإذا ظللت بعد أن تسمع لها مقتنعًا بظلمها لك بغير أسباب قهرية، فليكن صفحك عما فعلت ورفقك بها فى ضعفها قربى لربك وشفيعًا لديه أن يكتب لك السعادة فى أيامك المقبلة، ولتتذكر فى مثل هذا الموقف دعاء العادل العظيم عمر بن الخطاب رضوان الله عليه حين دعا ربه قائلاً: رب قدِّرنى على من ظلمنى لأجعل عفوى عنه شكرًا لقدرتى عليه.

ومع فارق الحال بين من ينطبق عليهم هذا الدعاء من الغرباء وبين وضع الأب والأم وذوى الرحم فى حياة الإنسان، فإنى أسألك فى النهاية: ألاَ تحب أن يكون عفوك عما أساءت به إليك أمك.. هو شكرك لخالقك العظيم سبحانه وتعالى على ما أنعم به عليك من نعم جليلة كنعم الأب الرحيم والتفوق فى الدراسة والصحة والشباب؟



9

أكتب إليك لأستشيرك فى أمر يشغلنى ويملك علىّ كل فكرى.. فأنا سيدة فى السادسة والأربعين من عمرى مازلت أحتفظ بقدر كبير من جمالى ورشاقتى، كما أن شخصيتى اجتماعية ومحبوبة من الآخرين.. ولقد تزوجت منذ ٢٢ عامًا من إنسان تعرفت عليه فى نطاق الأسرة وأعجبتنى شخصيته وأحببته.. وأحبنى، وتعاونّا على إقامة عشنا المشترك.. ووقفت وراءه فى كل خطوة حققها فى حياته العملية.. وأنجبنا بعد الزواج ابنتين وولدًا.. وتخليت عن طموحى المهنى من أجله ومن أجل أبنائى، فحصلت على أجازة بدون مرتب بعد الإنجاب لرعاية أطفالى الصغار، وتفرغت لهم وله، وتفننت فى تجميل بيتنا وحياتنا، بموهبتى التلقائية فى الديكور والتزيين.. وأنفقت كل هبات أبى المالية لى بعد الزواج فى إضافة الجديد من قطع الأثاث.. وتغيير الستائر.. وتركيب الباركيه.. حتى صار بيتى تحفة يفتخر بها زوجى ويدعو رؤساءه فى الشركة التى يعمل بها للعشاء فيه فى المناسبات وهو يزهو بى وبإجادتى للطهى أمامهم.. وبعد أن استنفدت رصيدى من الأجازة بدون مرتب عدت للعمل فى الهيئة الحكومية التى عينت بها بعد التخرج وعملت بضعة أعوام أخرى.. ثم عدت للتفرغ للأسرة مع بدء ابنتى الكبرى لمرحلة الثانوية العامة.. وبعد نجاحها بتفوق والتحاقها بالكلية

التى رغبت فيها عدت للعمل لمدة عام آخر ثم تفرغت مرة ثالثة حين جاء دور الابنة الثانية مع مرحلة الثانوية العامة.. وهكذا وزوجى سعيد بى وبأبنائه وبيته ويشيد بأمومتى وعطائى له ولأبنائى.. فى كل مناسبة.. وحياتنا تمضى سعيدة وزاخرة بالحب والود والصداقة والتفاهم. أما المشاكل العابرة التى لا يخلو منها أى بيت.. فلقد كانت تعبر حياتنا عبوراً سريعًا لا يترك أية مرارة تؤثر على علاقتنا الحميمة.. وحافظنا دائمًا على علاقة المودة والحب والرحمة التى تجمع بيننا، ومنذ بضع سنوات رحل أبى عن الحياة يرحمة الله وهو راض عنى وعن زوجى ويوصينى به ويوصيه بى، وورثت عنه مبلغًا من المال وضعته فى وديعة بالبنك.. واستفدت بعائدها السنوى فى التوسعة على أبنائى ونفسى وزوجى، وأصبحت أمى بعد رحيل أبى لاتجد راحتها إلا فى بيتى.. بالرغم من إلحاح إخوتى عليها لاستضافتها عندهم.. فكانت تنتقل بين بيتها وبيوتهم.. وتستقر عندى لفترات أطول لحبها لى ولزوجى وأبنائى.. وفى غمرة سعادتنا بحياتنا وأسرتنا مرض زوجى فجأة مرضًا شديدًا.. وتدهورت حالته الصحية خلال وقت قصير.. وأنا لا أكاد استوعب حقيقة ما يجرى أمامى.. وتركت أبنائى فى رعاية أمى وانشغلت كليةً برعاية زوجى والتنقل معه بين الأطباء.. ودخول المستشفى من حين لآخر، وأوفدته الشركة الكبرى التى يعمل بها للعلاج فى الخارج ولم يكن فى قرار سفره بند لمرافق لأن طبيب الشركة يسافر مع مرضاها

المحتاجين للعلاج فى الخارج، فاقتطعت من وديعتى بالبنك مبلغًا كبيرًا وسافرت معه، وأمضيت بالغربة شهرين كاملين تلقى خلالهما العلاج المكثف فى أحد المراكز المتخصصة، ولاحت بشائر الأمل فى تحسن حالته ورجعنا ونحن نتعلق بالأمل فى الشفاء فلم تمض أسابيع حتى كان الداء قد هزمه.. ورحل عن الحياة وتركنا وأحسست بعد رحيله بأننى فقدت الأمان.. والإحساس بطعم الحياة.. واستسلمت للحزن والاكتئاب. وخيَّم الصمت والظلام والكآبة على حياتنا، وأسدلت ستائر المسكن الجميل الذى أثثناه معًا قطعة قطعة على النوافذ وأبواب الشرفات كأننى لا أطيق أن يتسلل ضوء النهار إلى البيت الحزين.. ورفعت فيشة أجهزة التليفزيون فى غرفة المعيشة وغرف النوم.. وغطيتها كلها بقطع من القماش. وحرّمت على نفسى وأبنائى سماع الموسيقى والغناء من الراديو أو أجهزة التسجيل بالرغم من إشفاقى عليهم من حزنهم وافتقادهم لأبيهم الحنون طيب القلب الذى كثيرًا ما غبطت نفسى عليه وشكرت الله كثيرًا أن أنعم به وبأبنائى علىّ ودعوت له ولهم كل يوم أن يحفظهم ربهم من كل سوء، وواصلت الاستسلام لنوبات. البكاء وأمى تلومنى على استغراقى فى الحزن والكآبة.. وتطلب منى التخفيف عن نفسى وعن أبنائى وفتح نوافذ المسكن ومساعدة أبنائى على تجاوز المحنة والخروج من البيت.. وقطع الأجازة والعودة للعمل لكى يشغلنى عن أحزانى.. ومضت أسابيع ونحن على هذه الحال.. ثم بدأت أسمع

غمغمة وكلامًا مبهمًا ممن حولى.. وتكرر الكلام الغامض دون أن أفهمه.. إلى أن تخلص بعضهم من الحرج وقالوها لى صريحة.. وهى أن زوجى الحبيب الراحل الذى كان بالنسبة لى ككتاب مفتوح قرأت كل صفحاته، كان متزوجًا زواجًا عرفيًا موثقًا لدى المحامى من أرملة لها أبناء وتتقاضى معاشًا عن زوجها الراحل ولولا ذلك لتزوجها زواجًا رسميًا، وأن هذا الزواج السرى تم منذ سبع سنوات وظل مستمرًا حتى اللحظة الأخيرة دون أن أدرى وقد تكشف لهم أمره بعد رحيله عن الحياة بأيام قليلة.. وصُدمت فى وفاء زوجى لى صدمةً أذهلتنى عن صدمة فقدى إياه وتملكنى الذهول فترة طويلة.. وفقدت الثقة فى نفسى وفى الحب والإخلاص والوفاء وكل القيم المثالية، وتعجبت كيف تزوج هذه السيدة.. ولماذا.. ومتى تعرف بها.. وأين.. وكيف لم ألحظ عليه شيئًا خلال سبع سنوات؟! وبعد فترة الذهول الأولى، فوجئت ببركان من الغضب ينفجر داخلى ونهضت من نومى المتقطع فى الصباح ذات يوم فوجدتنى أفتح الستائر المسدلة فى كل نوافذ البيت.. ليدخل ضوء الشمس إلى المكان.. وأرفع الغطاء عن أجهزة التليفزيون.. وأفتحها كلها وأخلع الملابس السوداء وأرتدى الملابس الرمادية والزرقاء وأطلب من البنتين أن تخلعا ملابس الحداد وترتديا ماتشاءان من الملابس الملونة ماعدا الحمراء منها.. وتتساءل الابنتان عن السبب فى هذا الانقلاب فأشفق عليهما من الإجابة وأغيّر الموضوع.. وأتحمل نظرات اللوم فى

عينيهما، حين أخرج فى زيارات عائلية أو إلى الأسواق وأدعوهما للخروج معى للترويح عن نفسيهما. وبالرغم من كل ما أحسست به من غيظ وقهر حين عرفت بأمر الزواج السري لزوجى إلا أننى لم أصارحهما بعد بسبب تغيرى.. وخلعى لملابس الحداد.. أما حيرة ابنى الصغير لما طرأ علىّ من تغيرات فلقد فسرتها له بأننى أريد مساعدتهم بذلك على عدم الاستسلام للحزن حتى لا تتأثر صحتهم ودراستهم.

وفى بعض الأحيان أستريح لما فعلت.. ولالتزامى الصمت مع أبنائى بشأن أبيهم.. وفى بعض الأحيان يتملكنى السخط والغيظ فأعتزم مصارحتهم بالسبب الحقيقى.

وإنى أسألك يا سيدى كيف يأمن المرء للآخرين إذا كان أقرب الناس إليه قد تكشف له فى النهاية عن شخص آخر له حياة سرية استمرت سبع سنوات.دون أن أدرى عنها شيئًا؟. وبماذا تنصحنى أن أفعل مع أبنائى.. هل أصارحهم بهذه الحياة السرية لأبيهم.. وبسخطى الهائل عليه بسببها أم أدعهم فى أحزانهم على الأب المثالى الذى يفتقدون حنانه ورعايته وطيبته؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

ذكَّرتنى رسالتك بقصة شهيرة للأديب الفرنسى جى. دى موباسان بعنوان «الجواهر» روى فيها قصة فتاة شابة جميلة كالملائكة ذات خفر وحياء ووداعة.. تزوجت من موظف بوزارة الداخلية فسعد بها وسعدت به، وكانت مثالاً للإخلاص والوفاء والطهر.. وتتفنن فى إرضاء زوجها.. وفى تدبير معيشتهما بمرتبه المحدود بلا شكوى ولا أنين.. ولم يكن يعيبها فى نظره سوى شيئين هامشيين هما: ولعها الغريب بمشاهدة المسرح.. وولعها الأغرب بارتداء الجواهر المقلدة رخيصة الثمن لتكمل بها زينتها البسيطة.. ولقد كان يتجاوز عن هواية الجواهر المزيفة ويشفق عليها من فقره وعجزه عن أن يهديها ذات يوم قطعة جواهر حقيقية.. لكنها سعيدة بحياتها وراضية عنها ولا تشكو شيئًا، ثم رجعت من المسرح ذات ليلة مصابة بالتهاب رئوى من أثر البرد القارس، واشتد بها المرض خلال فترة قصيرة حتى أودى بحياتها، فكاد زوجها يهلك حزنًا عليها وافتقد برحيلها عن الحياة أنس عشرتها الطيبة له وإخلاصها ووفاءها وأخلاقها الملائكية، وازداد افتقاده إياها حين عجز عن أن يدبر شئون حياته بمرتبه المحدود، وتعجب كيف كانت تتفنن فى تدبير أمور حياتهما

معًا بهذا المرتب نفسه. واشتدت أزمته المالية ذات يوم ورأى أمامه صندوق مجوهراتها المزيفة الذى كان يطلق عليه مازحًا صندوق الخردة، فقرر أن يبيع عقدًا منه لعله يأتيه ببضعة قروش تعينه على أمره، وتوجه إلى أحد محلات الجواهر وعرض العقد الزائف على صاحبه على استحياء فإذا به يكتشف أنه من اللؤلؤ الحقيقى وباهظ القيمة.. وإذا به يكتشف بعد ذلك أن صندوق الخردة الذى خلّفته وراءها زوجته يضم ثروة ثمينة من الجواهر الحقيقية أهداها إليها عشاقها خلال السنوات التى عاشتها معه.. ويكتشف أنه كانت لها حياة سرية مؤسفة لم يكن يدرى عنها شيئًا ولم تتكشف له أية إشارة إليها إلا بعد رحيلها المفاجئ عن الحياة، والدرس الذى ينبغى لنا أن نستخلصه من رسالتك ومن هذه القصة ومثيلاتها فى الحياة هو أنه ليست هناك حياة سرية يمكن أن تبقى طى الكتمان إلى ما لا نهاية. وأنه من الحكمة أن تخلو حياة المرء الخاصة مما يسوؤه أن يعرفه عنه الآخرون فى حياته أو بعد رحيلة عن الدنيا.. إذا كان حقًا ممن يحرصون على احترامهم لأنفسهم واحترام الآخرين لهم فى الحياة.. ولذكراهم بعد رحيلهم عنها.

والكارثة هى أن بعض البشر لا يتصورون أن طائر الموت يمكن أن يحل فوق رؤوسهم فجأة.. فيهتك كل الأستار ويذيع كل ما أجهدوا

أنفسهم فى تكتمه وإخفائه من أسرار شخصية، مع أن كل الأسرار لابد أن تتكشف بعد حين.

وقديمًا قال الشاعر العربى:

ومهما تكن عند أمـرئ من خليقــة

وإن خالها تخفى على النـاس تُعـلم

غير أننى أقول لك بعد ذلك إن النبلاء من البشر هم الذين إذا أساء إليهم أحد تجاوزوا عن إساءته واستهدوا فى ذلك بمضمون الحديث الشريف الذى يقول لنا: «تجافوا عن عثرات الكريم»، أو سخطوا عليه إن عز عليهم الصفح. ولكن بغير أن يجرفهم السخط إلى هاوية الرغبة فى الانتقام منه وبغير أن يمدوا مظلة سخطهم عليه إلى الآخرين الذين لم يسىء إليهم إساءة مباشرة، ويطالبونهم بالانضمام إليهم فى موقفهم منه.. أو يعمدون إلى تشويه صورته أو ذكراه فى نفوسهم.

والزواج السرى أو الحياة السرية لزوجك التى طالت سبع سنوات ولم تكتشفى وجودها إلا بعد رحيله عن الحياة خطأ كبير ارتكبه زوجك فى حق الوفاء لك بغير جدال، ومن حقك بكل تأكيد أن تغضبى له.. وتشعرى بالسخط على مرتكبه بل وأن تهتز ثقتك لبعض الوقت فى قيم الحب والوفاء والإخلاص والعشرة الزوجية.

لكن ماليس من حقك هو أن تسحبى غضبك لكرامتك الشخصية

من زوجك وصورته المثالية كأب عطوف لأبنائه فى مخيلتهم، ولو فعلت ذلك استجابة لنوازع السخط والرغبة فى الانتقام منه بأثر رجعى.. فإنك ترتكبين بذلك خطأ أكثر فداحة فى حق أبنائك ومعنوياتهم ومثلهم العليا فى الحياة، فالأبناء ياسيدتى لا يسعدون باهتزاز رمز الأب فى مخيلتهم.. ولا بالإساءة إلى ذكراه.. مهما يكن رأى الغير فيه. ولقد خسر الأبناء بفقد أبيهم خسارة إنسانية كبرى مهما يكن من أمره معك.. وليس من الرحمة بهم أن تضاعفى من أحزانهم على فقد أبيهم بتجريح ذكراه فاغفرى له إن شئت ما كان من أمره بعد أن أصبح بين يدى مولاه، أو اسخطى عليه كما تشائين إذا عجزت عن الصفح الآن، ولكن لا تصدمى أبناءك فى أبيهم، ولا تهزى مثاله الطيب فى نفوسهم وتحفّظى فى «تحررك» من الحداد عليه أمامهم على الأقل لكيلا تجرحى مشاعرهم وتزيدى من أحزانهم وحيرتهم أمام حقائق الحياة المؤلمة..

فالحق أنه لا شىء يجرح قلب المحزون أكثر من أن يستشعر استهانة الغير وخاصه أقرب الناس إليه بأحزانه علىٰ من فقده.

ولقد يكون من الأوفق لك أن ترجعى إلى عملك الآن لكى يشغلك عن أفكارك وهواجسك.. ورغبتك المؤرقة فى الانتقام لنفسك من الطعنة الغادرة التى تلقيتها فى وفاه زوجك لك.



أنا شاب فى الخامسة والثلاثين من عمرى أحمل مؤهلاً عاليًا وأعمل عملاً حرًا يتطلب منى السفر من مدينتى التى أقيم بها إلى عاصمة المحافظة. . وأنا أصغر إخوتى حيث إن لى خمس شقيقات. . وقد نشأت يتيمًا إذ مات أبى وأنا فى السابعة من عمرى. . وأحوالى المادية معقولة ولدىّ مسكن جيد به كل الكماليات وأنا إنسان ملتزم وأحفظ نصف القرآن الكريم وأحافظ على دينى قدر المستطاع. .

والمشكلة التى أكتب إليك بشأنها ليست مع زوجة أو أبناء أو إخوة أو أخوات وإنما مع أمى!

نعم أمى. . فهى تحبنى بطريقة مَرضية مخيفة وترفض مجرد الحديث فى أى مشروع لزواجى، فإذا أخطأت إحدى شقيقاتى - وكلهن متزوجات - وحدثتنى أمامها فى أمر زواجى، فيا ويلى منها بعد انصراف أختى وعودتها إلى بيتها إذ ما أن تنصرف حتى تنهال علىّ أمى بأقذع الشتائم وتكشف رأسها وتدعو علىّ بكل مصائب الحياة وتهددنى بغضب قلبها علىّ إلى يوم القيامة إذا تزوجت قبل أن تودع هى الدنيا!. . ومنطقها فى ذلك هى أنها قد ربتنى يتيمًا وتحملت عبء رعايتى وحيدة ورعتنى وعلمتنى فكيف إذن تأخذنى منها - على الجاهز - امرأة أخرى؟

ولست فى حاجة لأن أحكى لك عن الجهود التى بذلتها شقيقاتى وأقاربى وبذلتها أنا معها لكى تقبل بفكرة زواجى وتطلق سراحى فأتزوج قبل أن يتقدم بى العمر أكثر من ذلك، فلقد كانت فى كل مرة تتظاهر تحت ضغط الأهل والشقيقات عليها بالموافقة.. فما إن تظهر لى فتاة مناسبة وأشرع فى السعى لخطبتها حتى تهبط على أمى كل أمراض الدنيا ويصبح لا همَّ لى إلا الذهاب معها إلى طبيب والعودة من عند طبيب آخر.. وإجراء التحاليل والأشعات ونظل على هذا الحال شهرًا كاملاً أنفق فيه ما أكون قد جمعته من المدخرات خلال شهور من العمل الشاق. فما إن يفشل مشروع الخطبة أو يتعثر أو أنصرف عنه حتى تتقدم صحة أمى خلال أيام.. وترجع دماء العافية إلى وجهها وتتحسن نتائج التحاليل والأشعات بقدرة قادر.. وبعد أن تكررت نفس القصة أكثر من مرة بنفس تفاصيلها نصحتنى إحدى شقيقاتى بأن أتقدم لإحدى زميلاتى فى العمل وأخطبها من أهلها فى «السر» أى بغير علم أمى ثم أحافظ على سرية الخطبة إلى يوم عقد القران وعندها تجد أمى نفسها أمام الأمر الواقع وعملت بالنصيحة وخطبت زميلة لى تصغرنى بخمس سنوات ووافق أهلها مشكورين على تكتم الخطبة حتى يوم القران.

وقبل عقده بأيام علمت أمى بالخبر فلم تقل شيئًا فى البداية لكنه

ما إن اقترب يوم القران حتى سقطت مريضة كالعادة وعانت من أزمة صحية خطيرة ظننت معها أنها فى النزع الأخير وتعذر عقد القران بالطبع.. وحددنا له موعدًا آخر فما إن جاء حتى حدث نفس الشىء وتأجل مرة ثانية وثالثة.. إلى أن اعتذر أهل خطيبتى عن عدم إتمام المشروع وأعادوا لى الشبكة والهدايا وشعرت بالأسى لنفسى.. وزاد من حزنى أننى رأيت أمى وهى تكاد ترقص طربًا بإرجاع الشبكة لى!

لقد نصحنى صديق لى باستشارة طبيب نفسى فى حالة أمى، فسافرت إلى القاهرة بالفعل واستشرت طبيبًا متخصصًا فنصحنى بألا أمانع فى زواج أمى إذا رغبت فى الزواج لأنها ربما تشعر بالغيرة علىّ، وأبلغت شقيقاتى بما قاله الطبيب فاعترضن جميعًا على فكرة زواجها لكبر سنها حيث أنها تجاوزت الخامسة والستين.

ومازال الحال كما هو عليه..

ومازلت محرومًا من حقى فى الزواج وإلا مرضت أمى وأشهدت السماء والأرض على غضب قلبها علىَّ إلى يوم الدين.. فماذا أفعل ياسيدى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

لا شك فى أن والدتك تشعر تجاهك بنوع من الغيرة المرضية يدفعها إلى الرغبة فى الاستئثار بك لنفسها دون غيرها من البشر.

وفى رأى عالم النفس الأمريكى كولز أن الأم التى تتصف بمثل هذه الغيرة المرضية على ابنها هى أم مصابة بوسواس قهرى قد يدفعها ذات يوم إلى ارتكاب عمل شائن بعيد عن الحكمة والعدل، وقد يوشك فى بعض الأحيان أن يقترب من دائرة الإجرام.. وهى فى النهاية مريضة وليست شريرة بطبعها كما أنها حالة شاذة بين الأمهات قد تظهر لدى الأمهات الوحيدات اللاتى عكفن على تربية ابن وحيد أو ابنة وحيدة بعد ترملهن أو طلاقهن، أكثر مما تظهر عند غيرهن من الأمهات اللاتى عشن حياة زوجية طبيعية تقاسمن خلالها مسئولية تربية الأبناء مع أزواجهن.

وفى مثل هذه الحالة الشاذة فإن الأم تشعر أن ابنها هو كل عالمها فتغالى فى الاهتمام بأمره والعناية بشخصه وتغار عليه من كل نظرة، ولا ترضى منه ببعض اهتمامه، أو بعض وقته، وإنما تريده كاملاً لنفسها كل الوقت.. ولما كان انصراف مشاعره إلى امرأة أخرى

وزواجه منها سوف يتعارض بالضرورة مع هذه الرغبة المتوحشة فى الانفراد به دون العالمين فلابد إذن من أن تسعى ولو بالحيلة إلى تدمير كل علاقة عاطفية جادة له مع أية فتاة.. وكل شروع للارتباط النهائى بها.. وفى سبيل ذلك قد تستعين بالحيلة والدهاء والابتزاز النفسى والعاطفى للابن لتحقيق هدفها..

ومثل هذه الأم يرى البروفسور كولز أنها تكون عادة واسعة الحيلة وماهرة فى التأثير على ابنها تأثيراً يفرق بينه وبين شريكته فى الحياة وكثيراً ما تلجأ إلى الكذب وتفسير الحقائق تفسيراً مغرضًا وقد تُصاب بسبب الغيرة القاتلة التى تنهشها على ابنها ممن ارتبط أو يعتزم الارتباط بها، بأمراض شتى فيجد الابن نفسه موزعًا بين نارين: البر بأمه والعدل مع شريكته، ولا عجب فى مرضها بهذه الأمراض الحقيقية لأن الخوف من فقد الابن فى مفهومها بزواجه من أخرى.. يؤثر بالفعل على جهازها العصبى وعلى جسمها، وأنت ياصديقى الابن الوحيد بالرغم من وجود شقيقات لك لأم وحيدة ربتك طفلاً بعد ترملها وبالغت فى الاهتمام بأمرك حتى خُيِّل إليها أن من حقها امتلاكك والاستئثار بك وحدها إلى آخر أيام حياتها.. وهى علاقة مركبة ومعقدة وتحمل من الأنانية وحب التملك أكثر مما تحمل من الحب الحقيقى السليم الذى يسعد صاحبه بسعادة من يحبه وليس

بحرمانه من السعادة وحقه الطبيعى فى الحياة.. وهى قد تمرض بالفعل.. أو تستدعى المرض بعقلها الباطن كلما استشعرت خطر ضياعك من يدها.. كما أنها تبتزك عاطفيًا بالتهديد بغضبها عليك إذا أقدمت على «خيانة» حبها الأنانى الزائف لك وتزوجت من أية فتاة.. وفى مجتمعاتنا الشرقية فإننا نجفل عن حق من غضب الأمهات والآباء ونخشى معه غضب السماء علينا ونتوقع له أوخم العواقب على حياتنا.. وكل ذلك صحيح لكن الدين يقول لنا فى نفس الوقت إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. وإصرار والدتك على حرمانك من حقك العادل فى الزواج وإعفاف نفسك يعطل سنة الله فى خلقه وقد يوردك إذا استمر الحال على ماهو عليه موارد الرذيلة.

إذن فلا طاعة لها فى معصية ربك..

ولا خوف عليك من غضبها عند رب العالمين لأنه إنما يتقبل الله من المتقين، وليس من المخالفين لشرعه والمعطلين لسنته والحاثين من حيث لا يدرون على الرذيلة. فابحث لنفسك عن فتاة محاربة مناضلة قوية الشكيمة لديها الاستعداد لأن تتحمل الحرب الضارية التى ستشنها عليها أمك فى البداية.. والمؤامرات التى سوف تحيك خيوطها ضدها وتحاول بها إظهارها أمامك فى أسوأ صورة..

وتحمل أنت نوبات مرضـها الاحتجاجى عـلى زواجـك، إلـى أن ينطفـئ لهب الغيرة رويدًا رويدًا فى قلبها وتسلِّم بالأمر الواقع فتتقبل حقيقة أنك إلى جوار كونك.ابنها المحبوب، فأنت أيضًا شاب له احتياجات نفسية وعاطفية لا تلبيها له إلا زوجة.. وبغير أن ينتقص ذلك من قدر أمه لديه ولا من حبه لها أو دورها فى حياته..

فأما نصيحة الطبيب النفسى لك بألا تعارض فى زواجها إذا رغبت فى الزواج فإننى أؤيده فيها خاصة مع ما أشرت إليه فى رسالتك وحذفته منها عند النشر.. كما أنه ليس من المستبعد أن تفكر هى فى هذه الخطوة كعمل انتقامى «لخيانتك» لها بالزواج.. لكن تصورى أنها لن تمضى فى الشوط إلى نهايته وأنها سوف تكتفى بالتهديد به كمحاولة يائسة وأخيرة لمنعك من الزواج.. والأمر لله من قبل ومن بعد فى بعض أحوال النفس البشرية المتشابكة التى تستعصى أحيانًا على الفهم والإدراك.


مركز
الشباب والرياضة
قطب

أكتب إليك بعد أن قرأت رسالة «تحية المساء» للسيدة الشابة التى روت قصة زواجها ممن أحبته منذ كان عمرها ١٧ عامًا.. ورفضه والدها بعنف.. واعتدى عليه بالضرب مرتين وعلى ابنته أكثر من مرة، فلم تتنازل عن حبها.. وأصرت على ألا تخرج على طاعة أبيها وألا تتزوج من فتاها إلا برضا أبويها ولو طال بها الانتظار إلى مالا نهاية حتى لان الأب فى النهاية وقبل بمن اختارته بعد ست سنوات وسعدت بحياتها ونعمت بحب زوجها ورضا أبويها بالرغم من كل ما جرى..

فلقد ذكرتنى هذه الرسالة الممتعة بقصتى.. فأنا شاب فى السابعة والثلاثين من العمر نشأت فى إحدى مدن الجنوب فى أسرة متوسطة بين ثلاثة من الإخوة وفى كنف أب شديد القسوة فى معاملة أبنائه ويطيع الجميع أوامره عن رضا أو رغمًا عنهم.. ولقد بدأت مشكلتى معه فى سن مبكرة إذ كان لا يطيق أن يخالف أحد أبنائه أمرًا له.. وكان من أوامره لنا أن نرجع من المدرسة للبيت مباشرة وألا نخرج منه بعد العودة أيًا كان السبب.. وكانت مشكلتى أننى أحب ممارسة الرياضة، فكنت أخرج من المدرسة إلى مركز الشباب فى مدينتنا لممارسة بعض الألعاب، وأرجع إلى البيت فيكون عقابى الضرب الشديد المبرح والحرمان من المصروف، وفى

بعض الأحيان الطرد، فأذهب إلى بيت جدتى وأقيم فيه بضعة أيام وتستدعى جدتى ابنها أى والدى وتعاتبه على طرده لى فيسمح فى النهاية بعودتى للبيت.. وتمضى حياتى هادئة بعض الوقت ثم لا يلبث نداء الرياضة أن يغلبنى فتتكرر القصة بكل تفاصيلها من جديد.. وشيئًا فشيئًا وجدت نفسى منبوذًا من أبى وأمى التى تتضامن معه فى كل شىء سواء أكان على حق أم على باطل، ومنبوذًا كذلك من إخوتى ربما لأنهم اعتبرونى متمردًا.. وربما لأنهم جاملوا أبى بالتضامن معه فى نبذى.. المهم أن الأيام قد مضت بنا وأنا أشعر أننى القط الأسود الذى ينفر منه أفراد الأسرة لكنهم لا يحرمونه بالرغم من ذلك من قوت يومه الضرورى!

وحصل شقيقاى على الثانوية العامة، فجاء لهما أبى باستمارات مكتب التنسيق وكتب بنفسه الرغبات التى أرادها هو لابنيه وكانت فى كليات محددة بالقاهرة لأنه كان يخطط لانتقال الأسرة كلها إليها بعد حصولى على الثانوية العامة خلال عامين.. وامتثل الابنان لرغبة الأب بحماس حقيقى أو ظاهرى لا أعلم.. فاستأجر لهما شقة مناسبة فى القاهرة وأغدق عليهما بالنقود والملابس والهدايا.. وانتظما فى دراستيهما وأصبحا نجمى الأسرة اللذين يعودان فى الأجازات فيُستقبلان بحفاوة كبيرة.. وتُمد لهما الموائد الحافلة احتفالاً بقدومهما..

وبعد عامين حصلت على الثانوية العامة.: وجاءنى أبى باستمارة

مكتب التنسيق وكتب فيها «الرغبات» التى رآها كالعادة وأخذتها منه لتقديمها للمكتب لكنى تجاسرت على خطوة رهيبة هى تغيير هذه الرغبات بما يتفق مع ميولى الدراسية وقدمتها للمكتب دون أن يعلم بما فعلت.. وجاء ترشيحى لكلية جامعية فى الجنوب فانفجر بركان الغضب من جانب أبى.. وحاول إثنائى عن رغبتى بكل وسيلة لكنى تمسكت بها فى أدب وإصرار فى نفس الوقت.. فكانت النتيجة أن حرمنى من الملابس والهدايا التى أحضرها لإخوتى عند الالتحاق بالجامعة، وتنبأ لى بالفشل المؤكد ـ فلم أعترض على شىء ولم أهتم أيضًا بما حرمت منه لأنه كان ثمنًا متوقعًا لاختيارى أن أدرس ما أريد وليس ما يريده أبى لى، وأمضيت سنوات الدراسة متفوقًا بالرغم من قلة ما كان أبى يرسله إلىّ من مصروف بالمقارنة بما يعطية لإخوتى، وتخرجت فى كليتى وأديت الخدمة العسكرية بسلام وقام أبى بتوزيع بعض ماله على إخوتى ليشقوا طريقهم فى الحياة فحصل أخى الأكبر على نصيبه وسافر للعمل بإحدى الدول العربية كما كان يحلم لنفسه، وحصل أخى الذى يليه على نصيبه وتزوج به وأقام مع زوجته بإحدى المحافظات حيث يعمل. وتزوجت أختى وأنفق أبى على زواجها بسخاء كبير، ولم يبق سواى الذى لم يحصل على شىء.. وبدأت حياتى بالعمل فى القطاع الخاص لكى أبنى نفسى.. وبعد فترة من العمل اخترت شريكة حياتى من أسرة طيبة متوسطة الحال.. وفاتحت أبى برغبتى فاعترض عليها كالعادة، وأرادنى أن

أتزوج من ابنة أخته، وتمسكت باختيارى فكان قراره هو أن أتحمل وحدى تبعات ذلك.. وتحملت بالفعل تبعات اختيارى كما تحملت دائمًا أقدارى، وأثار شجونى أن صاحب العمل الذى أعمل معه كان أكثر حنانًا بى من أبى فى هذا الموقف الذى يحتاج فيه الشاب دائمًا إلى أبيه ومساندته له..

وتزوجت زواجًا بسيطًا لا يتناسب مع ظروف أبى العائلية والمادية.. وأقمت فى شقة صغيرة فى حى عشوائى وأثثتها بأثاث قليل ورخيص، وسعدت بالرغم من ذلك بزوجتى وحياتى المتقشفة ولم أقصّر فى زيارة أبى وأمى وأداء واجبى تجاههما، وبعد عام من الزواج أنجبنا طفلة جميلة.. وأهدى إلينا بعض الأهل والأصدقاء هدايا ذهبية صغيرة احتفاءً بالمولودة.. وبعد شهور مرضت الطفلة بنزلة معوية حادة والتهاب رئوى.. ولم تسمح لى إمكاناتى المحدودة بالإنفاق على علاجها كما ينبغى فتوجهت إلى أبى وطلبت منه فى حياء أن يساعدنى فى نفقات العلاج.. فرفض قائلاً إنه ليس قادراً على المساعدة! وشعرت بمرارة شديدة وخجل أشد ورجعت من عنده مكسور القلب.. فأخذت زوجتى والطفلة وتوجهت إلى مستشفى «أبو الريش» للأطفال.. وقلت لنفسى إنه إذا لم تتسع لطفلتى رحمة أبى فلقد تتسع لها رحمة أطباء هذا المستشفى الجامعى.. وتم إدخال الطفلة للمستشفى على الفور لكن حالتها كانت متأخرة بسبب نقص العلاج فى الفترة السابقة فتدهورت

صحتها سريعًا وتوفيت إلى رحمة الله بالمستشفى. وماتت أول فرحة لى ولزوجتى، وحزنت على هذه الطفلة البريئة وحزنت زوجتى حزنًا مريرًا مؤلمًا.. وبالرغم من ذلك لم أنقطع عن أبى وأمى لكن الإحساس المؤلم بأن هذه الطفلة قد «قتلت» بسبب قلة النقود اللازمة للعلاج راح يقض علىّ مضجعى.. واستعنت بالصبر والصلاة والأمل فى رحمة أرحم الراحمين.. وبعد عام آخر أنجبنا طفلاً آخر خفف أحزاننا على الوليدة الراحلة، وفرحنا به كثيرًا.. وبعد ولادته بشهور استدعيت للقوات المسلحة وكنت قد عُينت فى وظيفة حكومية.. ولم يكن معى من النقود ما يكفى للسفر إلى حيث وحدتى العسكرية ولا ما أتركه لزوجتى خلال غيابى. فتوجهت لأبى وطلبت منه قرضًا صغيرًا ترده إليه زوجتى أول الشهر حين تقبض مرتبى فى غيابى، ومنحنى القرض وأعطيت بعض النقود لزوجتى وسافرت إلى وحدتى وجاء أول الشهر وتسلمت زوجتى مرتبى وفى نفس اليوم أصيب المولود الجديد بنزلة معوية شديدة وخشيت زوجتى أن تتكرر مأساة الطفلة الأولى فحملت الطفل لتّذهب به إلى الطبيب فإذا برسول من عند أبى يطلب منها سداد القرض الذى اقترضته منه على الفور فتوجهت بالطفل المريض إلى بيت أبى ودفعت الدين، واتجهت إلى المستشفى وفحص الأطباء الطفل ووصفوا له العلاج لكن النقود كانت قد تبخرت ولم يعد لديها ما تشترى به الدواء فتذكرت زوجتى الحلى الذهبية الصغيرة التى أهديت للطفلة الأولى والتى

تحتفظ بها كذكرى غالية لها. . فباعتها دامعة، لتنفق ثمنها على علاج طفلنا. . واستجاب الله لدعائها فشفى الطفل ونجا من الخطر ورجعت من الاستدعاء فروت لى ما حدث. . بكل تفاصيله. . فتندت عيناى بالدمع. . وتساءلت بينى وبين نفسى: ولماذا يا أبى هذه القسوة معى وحدى من بين كل إخوتى؟. . وقبّلت طفلى وشكرت ربى كثيراً أنه حماه مما كان يتهدده. .

وواصلت حياتى وعملى راضيًا. . وصابراً. . وفى كل حين أزور أبى وأمى وأرعى شئونهما وألبى طلباتهما. . ولا أعاتبهما فى شيء. . ووفقنى الله بعد قليل للعمل فى القطاع الخاص فى الفترة المسائية بعد انتهاء عملى الحكومى. . فانتعشت أحوالى المادية بعض الشيء. . وبدأ جفاف حياتنا يترطب ببعض الخير، فإذا بأبى يمرض مرضًا شديداً ويُصاب بنزيف من دوالى المرئ وبالسكر والكبد. . وإذا بى أبدأ معه رحلة العلاج الطويلة بين المستشفيات وفى البيت وأقيم معه بالمستشفيات أيامًا كثيرة بين إجراء التحاليل، وبين الرعاية المركزة والعلاج. . وأنفق أبى على علاجه معظم مدخراته. . ولم يجد سواى إلى جواره أعتنى به وألازمه فى المستشفيات وزيارة الأطباء وفى البيت فى حين اكتفى إخوتى بزيارات متباعدة وبالسؤال بالتليفون، ونتيجة لذلك فقدت عملى المسائى لعجزى عن ترك والدى. . ولم أحفل بذلك بالرغم من حاجتى إلى دخلى منه. . وتفرغت لأبى

ونسيت كل ما كان من أمره معى.. وكيف لا أنسى وهو أبى سواء كان رحيمًا بى أو قاسيًا علىّ.. لقد توقفت فى رسالة السيدة الشابة «تحية المساء» أمام المشهد الذى ارتمت فيه على صدر أبيها تُقبله وتحتضنه وتشكره حين وافق فى النهاية على زواجها ممن اختارته.. فبدت الدهشة على وجهه كأنه لا يصدق أن ابنته مازالت تحبه بالرغم من كل ما فعله بها ومعارضته لزواجها طوال ست سنوات.. وتذكرت أننى رأيت نفس هذه الدهشة المختلطة بالخجل على وجه أبى وأنا أخدمه فى مرضه وأدعو له بالشفاء وأقول له إننا لا نساوى شيئًا بدونه.. ولقد كنت صادقًا فيما شعرت به وعبرّت عنه.. وكان هو يشعر بشىء من الاستحياء منى، والحمد لله فإنى لم أقصر فى واجبى تجاهه.. ورحل عن الحياة وهو راض عنى تمامًا.. ولقد حزنت على وفاته كثيرًا.. وشعرت لدهشتى بأننى قد أصبحت بلا سند فى الحياة.. مع أنه لم يساعدنى فى حياتى.. والمشكلة الآن هى أن زوجتى تطالبنى بالسفر للعمل بالخارج لتحسين أحوالنا التى لم تتغير كثيرًا، وتأتينى من حين لآخر بفرص للعمل فى الخارج عن طريق بعض أقاربها.. لكن والدتى قد أصبحت وحيدة الآن وليس إلى جوارها أحد من أبنائها سواى ولا يقوم بشئونها غيرى وإخوتى كلهم بعيدون بالسفر للخارج أو إلى محافظة أخرى.. وأنا فى حيرة من أمرى إذ إننى لو سافرت للخارج فلن يرعى أمى ولن يسأل عنها أحد.. وزوجتى تطالبنى بأن أعمل ما فى صالحى وصالح

أسرتى كما يفعل إخوتى لمصلحتهم بالرغم من كل ما أعطاه لهم أبى وأمى دونى، وتقول لى إنهم جميعًا يعيشون حياة مريحة ومن حقى وحق أسرتى الصغيرة أن نتطلع لبعض الرخاء.. وأنا حائر بين إرضاء أمى وربى وبين حق زوجتى وأولادى فى العيش الكريم بعد صبر طويل معى على حياة التقشف والجفاف.. فبماذا تشير علىَّ خاصة أن زوجتى من قرّاء بابك وتقتنع بآرائك؟.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

لا عجب في أن تبر أباك وتقف إلى جواره في مرضه وضعفه وشيخوخته بالرغم من كل ما كان من أمره معك في السنوات الماضية فالشاعر العربي يقول:

أفعـال كـل امـرئ تنـبى بعنصـره

والعين تغنيك عن أن تطلـب الأثـرا

كما أننا لا نتعامل مع الأبوين بمبدأ المعاملة بالمثل الذى قد نتعامل به فى الحياة مع الغرباء، وإنما نتعامل معهم بما أمرنا به الله سبحانه وتعالى من إحسان صحبتهما والرفق بهما لو جاهدانا على أن نعبد غيره.

فإن كان فى رسالتك ما يستحق التأمل أكثر فهو أن يكون أقل الأبناء نيلاً لعطاء الأب ونهلاً من نبع حنوه وحنانه هو أرفقهم به وبأمه وأكثرهم حرصًا على أداء واجبه الدينى والإنسانى تجاههما.. غير أنه لا عجب فى ذلك مرة أخرى لأننا لا نعطى أبوينا على قدر المغنم منهما.. وإنما بقدر ما تمليه علينا فطرتنا السليمة ووجداننا الدينى وضميرنا الأخلاقى.

ولا شك فى أن والدك قد أخطأ فى حقك خطأ جسيمًا حين حرمك من حقك المشروع فى ماله.. ولم يسو بينك وبين إخوتك فى العطاء..، وحين أشعرك بالنبذ طوال حياتك ومطلع شبابك.. وأيضًا حين رغب فى فرض إرادته عليك فى نوع الدراسة واختيار شريكة الحياة بغير أن يتيح لك أى مجال للمناقشة والاقتناع بما يراه هو من وجهة نظره خيرًا لك.. فأما قبضه ليده عن مساعدتك حين كنت فى أشد الحاجة إلى عونه لك لعلاج طفلتك الأولى.. فليس مما يغتفر لأى أب بل لأى إنسان فى الوجود قادر على العون فى مثل هذه الظروف المؤلمة.

لقد أمرنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن نعدل بين أبنائنا ولو فى القُبل.. وبأن نعين أبناءنا على البر بنا بالرفق بهم والعدل معهم.

فبررت أنت بأبيك بالرغم من أنه لم يعنك كثيرًا على ذلك بالعدل معك، ومن كان هذا شأنه مع أبيه الذى حرمه لا يستطيع فى ظنى أن يتخلّى عن أمه الوحيدة التى يرعاها فى شيخوختها ويقوم بكل شئونها لكى يجرى وراء أمل غير مؤكد فى العمل بالخارج.

ولا غرابة فى ذلك فمن كان ابناً باراً بأبيه الذى قسا عليه لا يستطيع إلا أن يكون كذلك ابناً عطوفا رحيماً بأمه التى لم تسهم فى معاناته سوى بالعجز عن دفع الأذى عنه لضعفها أمام الأب القوى

المسيطر. وفى تقديرى أن عروض العمل فى الخارج لا تتزاحم عليك الآن بالصورة التى توحى بها كلمات زوجتك لك، وإنما هو مجرد أمل أو حلم يراودها عند المقارنة بين حظك فى الحياة وحظوظ إخوتك منها، فيثير هذا الصراع الذى لا داعى له بين واجبك تجاه أمك وبين حقك فى الحياة والعيش الكريم.

فلتعفك إذن زوجتك من صراع لا جدوى منه الآن سوى المعاناة وإيغار الصدور وإثارة المرارة فى نفسك تجاه إخوتك الذين شاءت لهم أقدراهم أن يعملوا ويقيموا فى أماكن بعيدة عن مقر إقامة الأم، فإذا كانت أقدارك قد جعلت منك الابن الوحيد المقيم إلى جوار الأم فى ضعفها ووحدتها فلأن السماء قد أرادت أن تهبك فضل رعاية الأم فى شيخوختها لتضيف ذلك إلى سابق فضلك فى رعاية الأب فى مرضه وضعفه وتثقّل بهما موازينك فى الدنيا والآخرة.

وشمس الأم يا صديقى لا يطول إشراقها فى السماء إلى مالا نهاية، وهى إن غابت لن تشرق على الدنيا مرة ثانية للأسف.

أما فرص العمل فى الخارج والداخل فإنها تذهب وتجىء.. ولقد يأسى المرء على فرصة ضاعت فيجىء اختيار الله له بأفضل مما كان قد اختاره لنفسه وبكى على فواته، ورعاية الأم الوحيدة فى الدنيا «جهاد» يجزى الله عنه صاحبه بما يجزى به المجاهدين فى سبيله.. فلقد وضع الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه الجهاد عمن له

أب شيخ أو أم عجوز لا يقويان على فراقه، وردّ من جاءه مجاهدًا على غير إرادة أبويه الشيخين قائلاً له: ففيهما فجاهد!

وأنت تستطيع أن تعمل لصالح أسرتك وصالحك كما تطالبك زوجتك بغير أن يتعارض ذلك مع حق أمك عليك إذا أتيح لك العمل المسائى الذى يزيد من دخلك، أو إذا رجع أحد إخوتك للإقامة فى القاهرة.. أو إذا كانت والدتك قادرة فى النهاية على رعاية نفسها واحتمال وحدتها وظروفها وأذنت هى لك بالسفر بنفس راضية وليس عن حرج أو تضحية.

فاختر لنفسك ما تراها جديرة به.. فلقد دفعت ثمنًا غاليًا لتمسكك بأن تختار حياتك بإرادتك الحرة وليس بإرادة أبيك فيما أراد اختياره لك من قبل. ومن كان هذا حاله.. يعرف بالضرورة أن لكل اختيار تبعاته التى يقبل بها راضيًا ويتحمل عناءها..

وما أحسب إلا أنك سوف تختار ألا تتخلى عن والدتك فى ضعفها وشيخوختها وأن تنتظر جوائز السماء العادلة لك على هذا الاختيار وعلى برك بأبيك وحسن مصاحبتك له من قبل.

شاءت لى أقدارى أن أحتاج إلى مشورتك، وقد كنت أظن من قبل وبالرغم من مداومتى على قراءة بابك أن المرء العاقل المثقف أقدر دائمًا على فهم جوانب مشكلته وحلها الحل المناسب من غيره.. وهاقد أثبتت لى الأيام خطأ ظنى.. ووجدتنى عاجزًا عن اتخاذ قرار بشأن حياتى وأحتاج إلى مشورتك فيها.

فأنا مهندس تجاوزت الثامنة والأربعين من عمرى بشهور.. كنت أعيش مع زوجتى الأستاذة الجامعية.. وابنى الطالب بالسنة الأولى بكلية مرموقة ـ حماه الله ـ وابنتى الطالبة بالسنة الأولى الثانوية.. أخرج إلى عملى بشركة أجنبية بالمدينة الساحلية التى نقيم فيها فى الصباح، فيأخذ عملى كل وقتى ولا أرجع إلى البيت إلا فى المساء، فأسعد بأسرتى الصغيرة المتحابة ونجلس للعشاء نتبادل الأحاديث العذبة عما حدث لى ولأفراد الأسرة خلال يومنا.. وأدع شئون البيت والأسرة كلها لزوجتى تديرها بحكمتها كيفما تشاء من مأكل وملبس ونزهات ودروس للأبناء.. وتستشيرنى فيما يعرض لها من أمور فأوافق غالبًا على رؤيتها.. وأقوم بالإنفاق.. وتتولى هى التنفيذ.. وهى قوية الشخصية وعنيدة فى طلباتها ولا تلين بسهولة إذا اقتنعت برأى..

أما فى المساء فهى زوجتى وحبيبتى وسكنى وراحتى.. ومضت بنا الأيام بحلوها ومرها وأدينا فريضة الحج معًا قبل سبعة أعوام.. ورحل أبى عن الحياة وقد كان نعم السند والمشير - يرحمه الله - فحزنت لفراقة كثيرًا.. وحججت عنه فى العام التالى.. ورجعت من الحج وأنا أكثر حبًا وتعلقًا بزوجتى فصارحتها بأن فترة بعدى عنها قد أكدت لى عمق تعلقى بها وعدم قدرتى على فراقها ورجوتها مازحًا ألا تستغل فىَّ هذا الضعف تجاهها.. وتوالت الأيام رخية هانئة.. وحقق ابنى وهو قرة عينى وعين والدته أملنا فى التفوق فى الثانوية العامة.. والالتحاق بنفس الكلية العملية المرموقة التى تخرجت فيها أمه.. وتبعته أخته على طريق التفوق وهى شديدة التعلق بأمها إلى حد أن كانت لا تنام فى كثير من الأحيان إلا بجوارها.. وحتى كنت أمازحها قائلاً لها إنها تحرمنى بذلك من زوجتى وحبيبتى.

والدنيا جميلة.. وزوجتى فى قمة صحتها وتألقها وجمالها تنتظر فى شوق الترقية إلى وظيفة أستاذ بكليتها.. والأيام قد لانت لى فتحسنت أحوالى المادية والعملية.. ونحن نقيم فى شقة جميلة بعمارة يملكها أبى رحمه الله.. وقد طلب منى قبل رحيله عن الدنيا وعدًا منى له بألا يدخل عمارته غريب عنا.. حيث لا يقيم فيها إلا الإخوة ولكل منهم إلى جانب شقته شقة إضافية لأبنائه فى المستقبل.

ومنذ ثلاثة أشهر وقفت زوجتى أمامى تضحك وتتحدث عن المستقبل والمكان الذى سنقضى فيه أجازة الصيف المقبلة.. وعن زميلة لها مصابة .بالمرض اللعين وتستعد للسفر إلى لندن للعلاج وإجراء الفحوص.. وفجأة وجدتها تجلس على المقعد وهى لا تستطيع التنفس.. وتقول لى إن قلبها يتوقف.. ثم تنطق بالشهادتين.. وتغيب عن الوجود الغياب الأبدى.. وكل ذلك فى ٥ دقائق فقط وأنا لا أصدق ما يجرى أمامى.. ولا أملك لها نفعًا.. ولا أستطيع أن أدفع عنها هذا الزائر الغامض الذى قوّض سعادتى وسعادة أسرتى واختطف زوجتى أمام عينى..

وزلزل الحدث كيانى كله وشعرت بيأس شديد من كل شىء، وأدركت أن الحياة ما هى إلا لهو ولعب وزينة ثم لا شىء بعد ذلك.. وتماسكت ظاهريًا أمام الناس وأبنائى.. ورحت أدعو لزوجتى الراحلة فى صلاتى وأناجى ربى بالدمع أن يرضيها ويرضى عنها ويدخلها جنته ويجمعنى بها فى مستقر رحمته بإذن الله مصداقًا لقوله تعالى: «هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون».

والآن فإننى أواجه الحيرة فيما أصنع بنفسى وحياتى بعد غياب زوجتى عنى.. فابنى كبير بما فيه الكفاية ويستطيع أن يكمل مشواره بإرشاد بسيط من جانبى.. أما ابنتى فلا تزال تحتاج إلى الرعاية وأحاول الآن بكل جهدى أن أملأ فراغ أمها فى حياتها.. والأسئلة

الحائرة التى تتردد داخلى الآن هى: هل أعيش لابنتى وابنى حتى التخرج وزواج كل منهما وسوف يستغرق ذلك عشر سنوات تقريبًا. . فيكون عمرى حينئذ ٥٨ عامًا. . فأعيش من بعدهما وحيدًا أجتر ذكريات السعادة القديمة؟ أم هل أبحث عن زوجة لى تكمل معى مشوار الحياة فتكون زوجة أب لولدى وابنتى وما أدراك ما زوجة الأب خاصة بعد أن تنجب؟

أم هل أتزوج مطلقة لا تنجب منى فنتقاسم معًا بقية العمر وتكون أمًا ثانية لأبنائى وأكون أبًا آخر لأبنائها؟، وإذا فعلت ذلك فهل يكون الزواج فى شقتى الحالية التى شهدت رحلة العمر مع زوجتى الراحلة. . أم فى شقة خارجية. . لتكون زوجة الأب بعيدة عن أبنائى؟ إننى لا أعرف أى طريق أسلكه ولا أين أجد الزوجة الملائمة لى خاصة أن عملى بعيد عن الاختلاط بالناس، مما يجعل الاختيار والمفاضلة أمرين شبه مستحيلين؟

أرجو النصح والإفادة. . وشكراً.

ولكاتب هذه الرسالة أقول

كلنا فى حاجة إلى مشورة الآخرين فى أمورنا يا صديقى. . غير أن هدوء الموج قد يوهمنا فى بعض الأحيان أننا فى مأمن من العواصف. . فإذا اضطرب البحر فجأة فزعنا بسفننا إلى المرافئ نلتمس فيها الأمان. . ونستعين بتجارب الآخرين وخبرتهم على اختيار المسار الآمن لها عند مواصلة الرحلة من جديد.

ولا شك فى أنك تقف الآن فى مفترق للطرق يتطلب منك الحكمة والرشاد فى اختيار المسار الجديد لسفينة حياتك وحياة ابنتيك خلال المرحلة المقبلة من العمر. . غير أن آثار العاصفة التى زلزلت أركان حياتك لم تزل قريبة فى الأفق. . ولم يمض بعد الوقت اللازم لاستيعاب ما جرى. . وترميم ما أتلفته العاصفة فى نفوس ركاب الرحلة. . قبل التهيؤ لاستئنافها من جديد. واتخاذ قرار متعجل الآن بشأن حياتك سوف يكون متأثرًا غالبًا بحالة الفراغ العاطفى والإنسانى الكبير الذى تعانيه حاليًا بسبب الغياب المفاجئ لشريكة العمر، وقد يقودك التعجل فيه إلى مهاوى سوء الاختيار لنفسك أو لأبنائك... لهذا فإن نصيحتى المخلصة لك هى أن تمنح نفسك

أولاً الوقت الكافى لاسترداد سكينة النفس والقلب وصفاء التفكير بعد الصدمة المزلزلة التى اعترضت حياتك، ثم تبدأ بعد فترة النقاهة النفسية الضرورية، التفكير فى مستقبل أيامك.. ذلك أنك سوف تحتاج أول ما تحتاج إلى إشراك ابنيك معك فى الاختيار لحياتك المقبلة.. لكى يكون قرارك بشأنها مقبولاً منهما ويتمتع بتأييدهما له..

ومفاتحتك لابنيك الآن وبعد ثلاثة أشهر فقط من رحيل أمهما عن الحياة فى أمر مستقبل حياتك بعدها.. قد يصدم مشاعرهما ويتعارض لديهما مع الاحترام الواجب لذكرى الأم الغالية.. أما حين تمضى الفترة الكافية.. ويلمس الابنان معاناتك لوحدتك.. واحتياجك الإنسانى لمن تعيد إليك الإحساس بالأمان والثقة فى المستقبل.. ويلمسان كذلك أثر افتقاد دور ربة الأسرة فى حياتهما الشخصية.. فلسوف يكونان مهيأين نفسيًا وإنسانيًا لبحث الأمر والتداول معك فيه.. ولقد يترفقان بك ويحثانك على التماس السلوى والعزاء عن وحدتك فى رفقة جديدة للحياة.. وفارق كبير بين أن يجىء الاقتراح من جانبهما رفقًا بأبيهما وحبًا له، وبين أن يضعهما الأب فى مثل هذا الحرج الإنسانى بعد ثلاثة أشهر فقط من مغيب شمس أمهما عن الحياة..

وحين يجىء الأوان للاختيار فقد يكون من الحكمة أن تدع القرار

بشأن «شكل» الحياة الزوجية المقبلة لك لابنيك بالتشاور معك. . فتعرف منهما هل يقبلان بأن تحل سيدة أخرى محل أمهما فى حياتك وحياتهما ويرجع شكل الأسرة الكامل إليهما. . أم يفضلان لك ولنفسيهما أن تكون لك حياة زوجية مستقلة عنهما وفى مسكن آخر بعيد عن موطن ذكريات الأم الراحلة؟

ولقد تكون البداية التى يفضلانها الآن هى الحياة الزوجية المستقلة لك فى مسكن آخر مادمت قادراً على ذلك، ولقد يكون العكس. . أو قد تكون البداية «مستقلة» ثم لاتلبث شخصية الزوجة المقبلة إذا كانت رحيمة وحكيمة أن تجتذبهما إليها حتى ليفضلا أن تشاركهما الحياة وتعوضهما عن دور الأم الغائب فى حياتهما. . وفى كل الأحوال فإن حسن الاختيار كفيل بتفادى كل الأشواك والهواجس التى تراودك الآن بشأن زوجة الأب المقبلة، وكم من زوجات للأب كنَّ نعم التعويض النفسى للأبناء الذين حرموا من أمهاتهم. . وكم من غيرهن أيضًا قد ضاعفن من شعور الأبناء بفداحة خسارتهم لأمهم. . غير أن الفضليات كثيرات وخير الزيجات فى مثل ظروفك الحالية هى من قدمت الحل الملائم لمشكلة الطرفين معًا. . وليس لمشكلة طرف على حساب طرف آخر. . وفى ذلك فلقد تكون المطلقة أو الأرملة القريبة منك فى العمر والظروف العائلية والاجتماعية هى أفضل الاختيارات المرشحة للنجاح والاستمرار. . والقبول من الأبناء.

أما الانتظار لعشر سنوات حتى يتخرج الابنان ويتزوجا.. فليس من الحكمة فى شىء لأنك لن تطيقه.. وأنت الذى يؤرقك الآن بحث مستقبل حياتك بعد ثلاثة أشهر من رحيل الزوجة الغالية.

والأوفق هو أن تصبر على ظروفك بعض الوقت ثم تختار لحياتك ما يعيد إليها السعادة والأمان بإذن الله.

أنا سيدة أقترب من الأربعين، نشأت فى أسرة متوسطة الحال وكنت الابنة الوحيدة بين إخوة لأب وأم طيبين ويتعاملان مع الحياة بلا خبث ولا التواء. ولأننى الابنة الوحيدة فلقد تمتعت بشىء من التدليل من جانب أبى وأمى ووقفت أمى إلى جوارى حتى أنهيت تعليمى الجامعى وعملت.. وكنت كغيرى من الفتيات أنتظر منذ وقت طويل فارس الأحلام الذى سيجىء راكبًا سيارة فاخرة ويقيم فى فيللا فخمة لكى يخطف قلبى وأعيش معه فى سعادة وهناء.. واستغرقت فى أحلام اليقظة فطال انتظارى دون أن يجىء هذا الفارس المنتظر، ورفضت بسبب خيالى المريض هذا كل من تقدموا لى لغير أسباب جوهرية فى شخصياتهم.. وفى كل مرة أرفض فيها عريسًا تبكى أمى بحرقة وترجونى هى وأبى أن أقبل لكيلا يتأخر بى العمر دون زواج.. وكان من بين من رفضتهم صديق لأخى الأكبر، وكان سبب رفضى له أنه موظف محدود الإمكانات ولا تتوافر فيه صفات فارس الأحلام من مسكن فاخر وسيارة فارهة ورصيد فى البنك.. فمضى بى العمر حتى بلغت سن الثلاثين دون زواج، ثم جاء أخى ذات يوم وأبلغنى أمام أبى وأمى أن صديقه الذى سبق له أن تقدم لى قبل ست سنوات لم يوفق فى الزواج ويريد أن

يتقدم لى من جديد.. فراح أبى وأمى يضغطان علىّ لقبوله ويهددانني بأن يغضبا علىّ حتى الموت إن لم أستجب لهما.. وشاركهما إخوتى الرجال فى ذلك والتهديد بالمقاطعة إذا رفضت.. وإزاء هذا الضغط الشديد قبلت بالزواج من هذا الصديق وأنا كارهة له.. وتم الزواج فى وقت قصير، حيث كان يملك شقة كاملة الأثاث بالرغم من ضعف إمكاناته.. وانتقلت إلى عش الزوجية بعد أسابيع قليلة.. وبدأت حياتى الزوجية معه بلا حماس ومضت أيامنا وشهورنا الأولى وأنا كارهة لزوجى لا أتحدث معه إلا نادرًا ولا ألبى طلباته.. ولا أتجاوب معه فى شىء.. ولا أحفل بشىء يسعده ولا أحزن لشىء يؤلمه.. ولا أشاركه مشاعره وأحلامه وأفكاره.. ولا أجامله فى أى شىء بل أثور عليه بعصبية شديدة كلما دعانى لذلك داع مهما يكن تافهًا.. فى حين يرد علىّ هو بهدوء شديد.. ويحاول الاعتذار عما أغضبنى وإن لم يكن قد أخطأ فى شىء.. ولاحظت أمى جفاء معاملتى له ونصحتنى بإحسان عشرته.. فلم أستجب لها وكان من الطبيعى أن يتأكد زوجى من كراهيتى له.. ويضيق بسوء معاملتى معه.. ويفقد صبره علىّ ويطلقنى بعد بضعة شهور، لكنه لم يفعل ولم يشكُ من سوء معاملتى لأحد من أهله أو أهلى.. بل كان يثنى علىّ ويشيد بأخلاقى.. ثم شاءت إرادة الله أن حملت بمولودى الأول.. وبدلاً من أن أسعد بحملى كما تفعل كل

النساء فقد شعرت بالحزن والاكتئاب وحاولت إجهاض حملى ببعض الحيل المألوفة فى هذا الشأن.. فلم تنجح محاولاتى.. واستسلمت لمصيرى وجاء مولودى فى موعده طفلاً جميلاً، فسعد به زوجى سعادة طاغية ورأيت فرحته الطفولية به فَرَقّ قلبى له لأول مرة.. وبدأت ألاحظ طيبة قلبه وحنانه ورقته.. وسألت نفسى لماذا قسوت عليه وجفوته على هذا النحو لمدة عامين كاملين ولغير سبب سوى أن أحلام يقظتى السابقة لم تتجسد فيه؟ وماذنبه هو فى هذه الأمنيات والأحلام التى قد تراود أية فتاة.. وقد جاءنى يطرق بابى من الطريق المشروع وقبلت به وشاركته حياته؟ وبدأت أغير طريقة تعاملى معه وأستجيب لطلباته.. وبدأت أستمع إلى حديثه وذكرياته وآرائه وأحلامه فإذا بى أكتشف فى حديثه متعةً عجبت لنفسى كيف لم أكتشفها من قبل وإذا بى أكتشف فيه إلى جانت طيبة قلبه ورقته، رجاحة العقل والرأى الصائب.. وأنه موضع احترام كل من يتعاملون معه وموضع ثقتهم..

وتغيّرت نظرتى إليه تغيرًا كاملاً.. وشعرت بسعادة جميلة فى الحياة معه لم أستشعرها من قبل.. وأصبحت الأوقات الثقيلة التى كانت تمضى بى وهو فى البيت أوقاتًا سعيدة وخفيفة.. وأصبحت لا أطيق البعد عنه لفترات طويلة بعد أن كنت أفتعل

الأسباب للخروج وحدى ولرفض خروجه معى أو لقضاء بضعة أيام فى بيت أهلى..

وسألته ذات يوم ونحن فى لحظة صفاء لماذا صبر علىّ طوال فترة مجافاتى له ولم يطلقنى؟، فأجابنى بهدوء بأنه يحبنى منذ تقدم لطلب يدى لأول مرة قبل سنوات.. وأنه كان واثقًا بالرغم من جفائى له من طيبتى وأخلاقى ويأمل فى أن أتغيّر للأحسن مع الأيام.. فلم أتمالك دموعى، وشعرت بالندم لرفضى له فى المرة الأولى قبل سنوات ولمجافاتى له بعد الزواج. وأقبلت على حياتى معه بكل الحب والإخلاص والرغبة فى السعادة. وأنجبت منه طفلة ثانية.. واختفت المشاجرات والخصام من حياتنا نهائيًا.. وسعدت أمى وأبى بسعادتى واستقرار حياتى سعادة قصوى.. ثم رجع زوجى من عمله ذات يوم مجهدًا فسألته عما به فأجابنى بأنه مجرد إرهاق سوف يزول بعد الراحة.. وبالفعل استسلم للنوم ساعتين ونهض.. وتكررت بعد ذلك نوبات الإجهاد والإرهاق من حين لآخر، وكلما ساورنى القلق وسألته عما يحس به طمأننى إلى أن كل شىء على ما يرام وليس هناك ما يدعونى للقلق.. واستمر الحال على هذا النحو حوالى عامين.. ثم تسارعت الأحداث أمامى وأنا مشدوهة لا أصدق ما يجرى.. فلقد تكررت الأزمات وتقاربت.. وهو يصر على أنه لا يعانى شيئًا سوى الإرهاق،

ويشغلنى عن الحديث فى هذا الأمر بمداعبتى.. ومداعبة الطفلين والحديث عن أمنياته لهما فى المستقبل إلى أن جاء اليوم الذى استسلم فيه للمرض فجأة ونقل إلى المستشفى وأمضى به أسبوعين، ثم انطفأت شمعته ورحل عن الحياة بعد سبع سنوات من زواجى منه.. وانهرت أمام الكارثة انهيارًا تامًا وأصبت بحالة اكتئاب شديدة، وتمالكت نفسى بصعوبة لكى أرعى الطفلين اللذين وهبهما لى الله من هذا الإنسان.. وأرى فيهما ملامحه الطيبة وروحه النبيلة..

وفسّر لى أخى الأكبر بعد ذلك ما استعصى علىّ فهمه من هذه الأحداث المؤلمة، فقال لى إن زوجى قد أصيب بأزمة صحية ذات يوم منذ عامين وفحصه الأطباء فاكتشفوا إصابته بمرض خطير وتأخر حالته، وأنه راح يتداوى من دائه ويتردد على الأطباء والمستشفيات ومعامل التحاليل وهو يتكتم عنى مرضه لكيلا أنزعج أو أشعر بالقلق والخوف من المستقبل.. إلى أن هزمه المرض فى النهاية وانتقل إلى جوار ربه راضيًا مرضيًا يرحمه الله.

فهل رأيت يا سيدى إنكاره لذاته حتى وهو فى أشد حالات الألم والمرض والمعاناة؟

إننى لا أعترض على قضاء الله وقدره.. لكنى حزينة على فترة

العامين التى جافيت فيهما المرحوم زوجى وكرهته بلا ذنب جناه.. وأسأت معاملته.. وجفوته..

بل إننى حزينة على السنوات التى أضعتها من عمرى حين رفضت قبوله زوجًا لى قبل أن أرتبط به بست سنوات.

وأتساءل الآن: ماذا لو كنت قد قبلت به.. وعشت معه فى سعادة وأمان إلى أن اختاره ربه إلى جواره؟.. ألم أكن قد أضفت بذلك إلى سنوات السعادة القليلة التى عشتها معه ثمانية أعوام كاملة؟

أولم تكن هذه السنوات الإضافية من السعادة قد أصبحت لى الآن زادًا جديدًا يعيننى على احتمال الحياة؟

إننى أنصح كل فتاة بأن تتواضع بشأن فارس الأحلام الذى تنتظره.. وأن تتخلى عن التكبر والغرور فقد تكتشف السعادة مع أبعد الأشخاص عن نموذج فارس أحلامها.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

زوجك الراحل يا سيدتى واحد من هؤلاء الأشخاص الذين يعبرون الحياة كما تعبر النسائم الرقيقة بالوجوه فى حر يوم قائظ فتلطف من إحساسها بالهجير، وتترك وراءها أطيب الأثر.. وأمثال هؤلاء الأشخاص يتسمون غالبًا بإنكار الذات والصبر على المكاره وقلة مطالبهم من الآخرين ومن الحياة، وتقبلهم لأقدارهم فيها بلا سخط ولا أنين، كما يتسمون كذلك بتطلعهم المحروم غالبًا للسعادة.. ورغبتهم فى إسعاد الآخرين وتسامحهم مع الحياة فيما ضنّت به عليهم وبالقدرة على العطاء للغير والرفق بهم.

ومن أسف أن عبورهم بالحياة يكون سريعًا متعجلاً فى كثير من الأحيان ولو طال بهم المقام لزادوا من مساحة الحب والخير والجمال فيها، وقللوا من مساحة القبح والشر والمعاناة.. لكن متى استقر طيف عابر فى مكان واحد؟

فإن كان ثمة ما يستحق الحزن عليه بالفعل.. فهو أننا قد «نجهل» فى كثير من الأحيان أقدار هؤلاء الأشخاص وهم بين ظهرانينا..

ولا نكاد نكتشف جمال أرواحهم وأُنس عشرتهم حتى تكون شمس حياتهم قد آذنت بالمغيب.

ومن خطايا الإنسان فى حق نفسه وحق الحياة على السواء أنه كثيرًا ما يجهل أسباب السعادة الحقيقية المتاحة له.. ويضرب فى الصحراء باحثًا عنها! وأنه قد يحتاج فى بعض الأحيان إلى من «يجبره» على السعادة المتاحة له كما فعل معك أبواك وإخوتك حين ضغطوا عليك بشدة لقبول هذا الزوج المضحى بعد أن رفضتِه أكثر من مرة.

وقديمًا قال المفكر الفرنسى مونتسكيو إنه ليس هناك شخص لا يزوره الحظ السعيد ولو مرة واحده فى حياته، غير أنه إذا لم يجده على أهبة الاستعداد لاستقباله فإنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة، ولقد زارك الحظ السعيد حين تقدم إليك هذا الرجل مرة ثانية ولولا أن ضغط عليك أبواك لقبوله بعد أن طال بك انتظار فارس الأحلام لما عرفت السعادة الحقيقية فى حياتك الزوجية ولولا أن صبر عليك زوجك بطبيعته المضحية الراضية بالقليل من الحياة ومن الآخرين لما أتيح لك أن تكتشفى جمال شخصيته وعمق حبه لك، فتتفتح له مسامك ومشاعرك بعد إغلاق، ولما اكتشفت فيه كذلك بعين المحب كل ماخفى عليك من قبل وأنت تنظرين إليه بعين الكاره المتأفف خلال عامى الجفاء فى بداية الزواج.

فإذا كانت السعادة قصيرة فى حياتك كما هو الحال فى بعض الأحيان.. فإن عزاءك عن ذلك هو أنها كانت حقيقية وصادقة.. تثرى القلب والوجدان.. ولسوف تكون زادًا معنويًا لك يعينك على الصمود لتجربة الأيام، ومن مفارقات الحياة المؤلمة أنها قد تكرر فى بعض الأحيان ما شكا منه المتنبى حين قال:

تفضلت الأيام بالجمع بيننا

فلما حمدنا لم تُدمنا على الحمد

لكن ماذا نفعل يا سيدتى فيما قضت به المقادير وماذا نملك سوى الامتثال لأقدارنا.. والرضا بها.. والتعزى عن آلام الحياة بذكريات السعادة الحقيقية.. والتمسك بالأمل فى رحمة الله؟.

إننى أشكرك على رسالتك التى تحذر الفتيات من الاستغراق فى أحلام اليقظة.. والتكبر والغرور، وأرجو أن يستفيد الجميع بتجربتك فى إهدار بضع سنوات ثمينة من العمر فى التكبر على السعادة و«الجهل» بها..



أكتب لك قصتى لعلى أجد لديك الحل الملائم لمشكلتى، فأنا سيدة فى الأربعين من عمرى على قدر من الجمال والثقافة وقد تزوجت وأنا صغيرة السن وأنجبت وعشت مع زوجى فى سعادة تامة لمدة عشر سنوات إلى أن رحل عن الحياة فكانت صدمتى فيه كبيرة نظرًا لرومانسيتى.. وانتابنى الحزن الشديد واحتضنت أبنائى وأفضت عليهم من حبى وحنانى حتى وصلوا إلى المرحلتين الإعدادية والثانوية، وخلال ذلك رفضت كل من تقدموا لى لأن أبنائى كانوا صغارًا وفى أشد الحاجة إلىّ.. وقد بدأت مشكلتى التى أكتب لك بشأنها منذ عام تقريبًا إذ إن لى زميلة بالعمل أعتبرها أختًا لى وصديقةً لعمرى وزوجها يعمل معنا فى نفس المكان.. ومنذ عام وجدت زوج صديقتى هذه يتقرب إلىّ ويدعونى للكف عن الحزن والتفتح للحياة من جديد بعد مرور تسع سنوات على رحيل زوجى، ويقول لى إننى يجب أن أفكر فى أمرى لأن أبنائى ذكور وسوف يكون لكل منهم حياته الخاصة وسيتركوننى فى النهاية وحيدة، وأنا مازلت جميلة وكل من يرانى لا يصدق أننى أم لهؤلاء الأبناء.. كما أننى أحتاج إلى رجل يقدرنى ويقدر جمالى وثقافتى وتفكيرى!

ووجدت كلامه صحيحًا! أما المفاجأة فهى أنه قد عرض

عليّ الزواج، فسارعت برفض طلبه لأن مبادئى لا تسمح لى بخيانة صديقتى. لكنه لم ييأس.. ولم يكل أو يمل الإلحاح عليّ بطلبه، وأنا أقاوم بكل ما أوتيت من قوة وقدرة على الرفض ورفضى له يزيده إصرارًا على طلب الزواج منى ويقول إنه مستعد أن يعلن للجميع رغبته هذه.. وأنا أدعو الله فى صلاتى أن يقدرنى على نفسى ويهبنى القوة على الاستمرار فى مواجهة ذلك الزميل.. لأننى أخاف الله وأخشى دعاء المظلوم ولا أريد أن أظلم صديقتى، وأسأل الله أن يقينى شر نفسى.. فماذا تقول لى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

لقد «خنت» صديقتك المقربة بالفعل ياسيدتى بسماحك لزوجها بأن يُطرى جمالك وثقافتك وفكرك وينصحك بالتفتح للحياة من جديد مما شجعه على أن يتقدم إليك بطلب الزواج منك.. فالخيانة درجات ومراتب.. ولقد خطوت خطوة أو خطوتين على طريقها بالاستماع إلى هذا الإغراء من زوج صديقتك التى تعتبرينها أختًا لك وصديقة عمرك.. والسكوت عليه.. والاستنامة له، أما أقصى درجاتها فلم تصلى إليها بعد بقبول الزواج من زوجها والحمد لله.. ولو لم تكونى رافضة للعبث من الأصل لما احتاج هذا الرجل لأن يطلب منك الزواج.. ولكان طريق الإطراء قد قادكما معًا للتورط فيما لا ترضينه لنفسك، والمثل الأمريكى يقول: لا يشترى الرجل بقرة إذا كان يحصل على اللبن مجانًا!، ولأن همسه المسموم لك لم يتح له الحصول على اللبن المأمول بلا ثمن فلقد عرض عليك الزواج.. وزاده رفضك له إلحاحًا عليك لكيلا يشعر بالفشل وخيبة الرجاء.

وكل ذلك مما يتعارض مع حقوق الصداقة والأخوة التى تفرضها

عليك صداقتك لزميلة العمل هذه، والشاعر العربى القديم أبو العتاهية يقول:

صديقى مـــن يقاســمنى همومـــى

ويرمـى بالعــدواة مـــن رمانـــى

ويحفظـــنى إذا ماغبـــت عنــــه

وأرجـــوه لنائبــــة الزمـــــان

وليس من قبيل حفظ الصديقة فى غيابها أن تسلمى أذنيك لزوجها لكى يفح فيهما فحيحه المسموم بهدف أن يحقق مأربه منك بغير الزواج إذا استطاع.. وبالزواج إن لم يكن منه سبيل.

لقد كان أمير المحدثين أبو سفيان الثورى يقول: أول العلم: الصمت ثم الاستماع إليه ثم العمل به!

ولقد أستطيع أن أقول مستهديًا بهذه العبارة الحكيمة: إن أول الغواية الصمت عليها ثم الاستماع إليها.. ثم الاستجابة لها.

فسدى أذنيك عن سماع همس هذا الزميل المسموم لك لكيلا تضعف مقاومتك فى النهاية.. فإطراء جمال المرأة هو أول طرقة على حديدها الساخن لكى يلين.. وقديمًا قال أحد الحكماء متحديًا زملاءه:

أستطيع أن أحوّل هذا الإنسان العاقل إلى مجنون خلال فترة قصيرة.. فقيل له: كيف؟ فقال: بمدحه والإلحاح عليه بالمدح حتى يفقد عقله واتزانه!

وليس هناك على أيه حال رجل يستطيع الإلحاح على امرأة برغبته فيها عامًا كاملاً لو كان قد ووجه بالرفض القاطع والاستنكار الشديد لهذه الرغبة بما لا يدع له أى أمل فى إضعاف مقاومتها ذات يوم.

فإذا رغبت فى الزواج ياسيدتى فإنك تستطيعين أن تتزوجى بغير أن يقترن زواجك بخيانة أقرب الصديقات لك ولا بتأنيب الضمير لك على خيانتك لها.

أما بقاء الحال على ماهو عليه فلن يؤدى إلا إلى ضعف مقاومتك ذات يوم قريب أو بعيد، فاقطعى الطريق على هذا الرجل بشكل صارم.. وتجنبى انفراده بك وحديثه إليك بكل حسم حتى ولو أدى ذلك إلى تباعدك عن هذه الصديقة.. والسلام.



١٥

أنا شابة أبلغ من العمر ١٩ عامًا نشأت فى أسرة مكونة من أم طبيبة وأب يعمل بالحكومة وشقيقين وشقيقة. . وحين كان عمرى عامًا واحدًا ارتفعت درجة حرارتى بشدة وتوجه بى أبى وأمى إلى المستشفى وأعطانى الأطباء حقنة خاطئة أدت إلى ارتخاء الأعصاب عندى بحيث فقدت القدرة على المشى إلا بمساعدة الغير، ثم هاجر أبى إلى أمريكا بعد ذلك بسنوات لكى يعالجنى فيها وأُجريت لى جراحتان فى غاية الخطورة نجوت منهما والحمد لله، وعشت حياتى بعد ذلك بطريقة شبه طبيعية، وواصلت تعليمى حتى التحقت بالجامعة فى أمريكا، ومنذ أربعة شهور تقدم شاب مصرى مقيم بالولايات المتحدة لخطبتى. . ولم يرحب به أبى. . غير أن أمى وأنا ضغطنا عليه حتى قبل به. وتمت الخطبة. . ولم أكن سعيدة بها وشعرت شعورًا غامضًا بأن خطيبى هذا ليس هو الإنسان الذى أستطيع الحياة معه تحت سقف واحد، لكنى كذّبت مشاعرى التى تصدقنى الحس دائمًا، وبعد شهرين من الخطبة حصل خطيبى على وظيفة ممتازة بمرتب جيد بعد أن كان يعمل عملاً صغيرًا فى جراج للسيارات، وبعد ذلك بقليل جاءنى ليقول لى إن أهله يعيرونه بى لأننى معوقة، ثم تم فسخ الخطبة، وبالرغم من أننى لم أكن أشعر بالارتياح لهذا الشاب من البداية إلا

أننى قد صدمت صدمة شديدة فى تصرفه معى.. وشعرت بالإهانة والجرح الشديد لمشاعرى.. ولا أستطيع نسيان ذلك حتى الآن.. إننى إنسانة متدينة جداً والحمد لله.. وراضية بأقدارى، لكن جرح المشاعر شىء مؤلم، فلماذا يجرح البعض مشاعر الآخرين بهذه القسوة ياسيدى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

في أقصوصة شهيرة للأديب الفرنسي أناتول فرانس كلفّ الملك الشاب علماء بلده أن يكتبوا له تاريخ البشرية لكي يطّلع عليه، فاعتكفوا لمدة سنوات ثم رجعوا إليه ومعهم أحمال ضخمة من المجلدات.. واستهول الملك الشاب أن يقرأ كل هذه الكتب فطلب منهم اختصارها فعكفوا عليها سنوات أخرى ورجعوا إليه ببضعة مجلدات كبيرة. لكنه لم يجد الوقت الكافي أيضًا لقراءتها وطلب منهم من جديد إعادة اختصارها.. فتقدم منه أحد العلماء قائلاً له: سألخص لك تاريخ البشرية في كلمات قليلة:

يولد الناس.. ويتألمون.. ويموتون!

ثم حمل مجلداته الضخمة وانسحب مع زملائه من مجلس الملك، وبعد سنوات أخرى جاء الكاتب الأمريكي الساخر مارك توين فأجرى تعديله الخاص على هذه العبارة الموجزة وقال:

يولد الناس ثم يجبرون بعضهم البعض على الألم.. ثم يموتون!

ولقد تذكرت عبارة مارك توين المريرة هذه.. وأنا أقرأ رسالتك لأن معظم آلام الإنسان هي من صنع البشر بالفعل.. وهذا الشاب

الذى جرح مشاعرك كان يستطيع أن يتنصل من ارتباطه بك بأية حجة أخرى لا تؤلم مشاعرك.. ولا تترك هذا الأثر الغائر فى نفسك، لكن ماذا نستطيع أن نقول عن ولع بعض البشر بإيلام غيرهم!

إننى أدعوك أيتها الفتاة الشابة إلى عدم التوقف أمام هذا الحدث العارض فى حياتك والتجاوز عنه.. والثقة فى نفسك وفى جدارتك بأن تكونى ذات يوم قريب زوجة يسعد بها من يرتبط بها.. فأنت مازلت فى مقتبل العمر، ولسوف تحمل إليك أمواج الحياة كل خير وسعادة وأمان فى المستقبل القريب بإذن الله.

أكتب لك رسالتى هذه بعد تفكير عميق. فأنا رجل فى الثانية والأربعين من عمرى جئت من قريتى الواقعة فى أعماق الجنوب بعد إنهائى الخدمة العسكرية لأبحث عن مستقبلى فى القاهرة، وزودنى أبى المزارع البسيط برسالة توصية شفوية لابن عم له يقيم بالعاصمة ويملك مقهى صغيرًا فى أحد الأحياء، وكان معى حين جئت إلى القاهرة ٣٣ جنيهًا لا غير هى كل ما استطاع أبى الطيب أن يوفرها لى وركبت القطار مودعًا بدعواته ودعوات أمى لى بالتوفيق فى حياتى الجديدة.. وتوجهت إلى مقهى ابن عم أبى أو عمى كما سوف أناديه وعرّفته بنفسى فرحب بى فى فتور وبدا واضحًا من البداية أننى أمثل له همًا ثقيلاً أضيف إلى همومه.. لكن ماذا يملك الشاب المنقطع عن أهله سوى أن يبتلع مشاعره ويصبر على ما لا يسره؟. وبعد أيام قليلة استضافنى خلالها عمى فى بيته وبدأت العمل معه إلى أن أنجح فى الحصول على وظيفة، ولفت هو نظرى إلى أننى سوف أبيت فى المقهى إلى أن تتحسن أحوالى ويصبح فى مقدورى استئجار غرفة لإقامتى المستقلة. وأقرضنى بطانية قديمة أصبحت هى فراشى وغطائى ومتاعى الوحيد فى هذه المدينة القاسية. وبدأت عملى كمساعد جارسون بالمقهى، أقضى يومى كله وجزءًا كبيرًا من الليل ألبى طلبات الزبائن.. وأشترى لبيت عمى ما

يحتاج إليه، وأنهى يومى الشاق بمسح المقهى، ثم أفرش البطانية وألقى بجسمى المتعب عليها فأروح فى نوم عميق ٤ أو ٥ ساعات على الأكثر ثم يفتح المقهى أبوابه من جديد ويبدأ يوم العمل التالى.. واستمر الحال على هذا النحو عامين تحملت فيهما الكثير والكثير من مناكفات الزبائن وعصبية عمى الذى لم يكن يتورع أحيانًا عن صفعى أمام الزبائن لخطأ ارتكبته عن قلة خبرة.. أو عن جهل.. ولقد بكيت فى أول مرة صفعنى فيها عمى.. ليس لألم الضرب وحده ولكن لما شعرت به من هوان «وانكسار» وفكرت جديًا فى أن أترك كل شىء وأركب القطار عائدًا إلى بلدتى وأبى وأمى وإخوتى لآكل الخبز الجاف معهم بدلاً من هذا الذل.. لكنى جبنت للأسف عن تنفيذ ذلك.. وكان أكثر ما أضعف عزيمتى هو مقدار الألم الذى سيشعر به أبى إذا عرف بمعاناتى وهو الرجل المصلّى الصوّام الذى يدعو ربه كل حين بالستر لنفسه وأبنائه.. وهكذا تحملت ظروفى وصبرت على الأذى، وكان أحد الأسباب التى ساعدتنى على الاحتمال هو زوجة عمى الطيبة التى تعطف علىّ وابنتها الكبرى التى كانت فى بداية الشباب وتتعامل معى باحترام وتهذيب.. وبعد عامين من هذا الشقاء نقص خلالهما وزنى بضعة كيلو جرامات بسبب كثرة المجهود وقلة النوم.. وجدت لنفسى غرفة على سطح بيت قديم بجوار بيت عمى، واشتريت سريرًا حديديًا قديمًا ومرتبة ومخدة ومائدة صغيرة ومقعدًا وبعض

أدوات المطبخ القليلة.. وأصبح لى مسكن مستقل فى القاهرة الصاخبة.. وبدأت كذلك أكتشف أن عمى لا يعطينى الأجر المناسب لمجهودى الكبير.. كما بدأت أعرف أنه من حقى أن أنام ٨ ساعات كل يوم.. ثم أرشدنى أحد روّاد المقهى للتقدم لمسابقة للعمل بأحد البنوك وساعدنى فى استرجاع مواد المدرسة التجارية التى درست بها فكانت المعجزة هى أننى قد اجتزت الامتحان بنجاح وعُينت فى هذا البنك.

وبالفعل لم يسعد عمى بعملى الجديد لأنه سيحرمه من نصف مجهودى معه، لكننى لم آبه لذلك واستمررت فى العمل بالمقهى فى الفترة المسائية.. وحين قبضت أول مرتب لى جلست إلى المائدة الصغيرة فى غرفتى وكتبت لأبى خطابًا قلت له فيه إن دعواته الصالحة ودعوات أمى قد أتت ثمارها.. وإننى أصبحت موظفًا محترمًا بأحد البنوك الكبرى ولى مرتب إلى جانب عملى الخارجى.. ثم أرفقت مع الخطاب حوالة بريدية بمبلغ ١٥ جنيهًا.

وبعد عدة أسابيع عدت إلى بلدتى فى الجنوب فى أول زيارة لأهلى بعد عامين وبضعة شهور وهطلت دموعى وأبى يحتضننى بعنف وأمى تزغرد فى وجهى ودموعها تسيل وإخوتى مبتهجون وسعداء بالهدايا البسيطة التى حملتها لهم.. ثم جاء الأهل والأقارب

والجيران يرحبون ويهنئون بالعودة والنجاح والتوفيق فى العمل . . ورجعت إلى القاهرة وأنا أكثر عزمًا وإصرارًا على أن أبذل كل ما أملك من جهد لتحسين حالى ومساعدة أبى . . وكنت خلال وجودى معه قد صارحته بحبى لابنة عمى ورغبتى فى الارتباط بها فشجعنى على ذلك مؤكدًا لى أن والدها سوف يتشرف بمصاهرة موظف محترم وشاب مستقيم وناجح مثلى . . وأنه على استعداد للحضور للقاهرة ليخطبها لى . . لكنى اتفقت معه على أن أجس نبض عمى أولاً فإذا وجدت ترحيبًا كتبت لأبى ليحضر للقاهرة، وفاتحت عمى برغبتى ففوجئت به يرفض بخشونة الموافقة على طلبى . . ويذكرنى بقلة إمكاناتى وكثرة أعباء أبى إلخ . . وصدمت صدمة أخرى شديدة وامتنعت منذ ذلك اليوم عن العمل بالمقهى فى المساء . . وعلمت من عامل المقهى أن زوجة عمى قد عاتبت زوجها على رفضه لى لأنى شاب طيب ومن لحمه ودمه وسوف أصون ابنتها أكثر من غيرى . . فلم يغير رأيه .

وتفرغت لوظيفتى . . ثم بدأت بمساعدة الموظف الذى أعاننى على العمل بالبنك فى ممارسة تجارة العملة وكانت وقتها مازالت محظورة رسميًا ولست أخجل الآن من الاعتراف بذلك لأنها كانت تجارة مثل أى تجارة . . وقد تغيرّت القوانين بعد ذلك وسمحت بها . . وخلال ثلاث أو أربع سنوات كانت أحوالى المادية قد تحسنت كثيرًا وانتقلت

من غرفة السطح إلى شقة معقولة بالبيت نفسه وتحسّن مظهرى الخارجى.. وانتظمت فى إرسالى الحوالات البريدية لأبى وفى زيارة أهلى كل سنة.

كما لم أنقطع عن زيارة عمى فى المقهى من حين لآخر.. وزيارة زوجته وأولادهما، وفى إحدى زياراتى هذه فاجئنى بأن طلب منى تهنئة ابنة عمى على خطبتها لتاجر ميسور الحال من معارفه.. فهنأتها وفى قلبى غصة لا يشعر بها أحد.

وانفجر بركان الغضب فى داخلى ليس من عمى ولكن من الظروف القاسية التى تحرم الإنسان من تحقيق آماله فى الحياة.. وتحول هذا البركان إلى طاقة هائلة على العمل لتحسين أحوالى وإشعار عمى بأن الصغير قد يكبر وأنه قد خسر صهرًا وزوجًا لابنته كان يمكن أن يتشرف به لو كان قد صبر قليلاً عليه..

وازداد نشاطى فى تجارة العملة كما تاجرت فى السلع المعمرة.. أشتريها من تاجر تعرفت عليه وأبيعها لموظفى البنك والبنوك المجاورة ولزبائن المقهى بالتقسيط المريح وبهامش ربح رحيم. وفى أول الشهر أطوف على المشترين لتحصيل الأقساط.. ثم توسع نشاطى أكثر فشاركت هذا التاجر نفسه فى تجارته بعد أن أقرضته مبلغًا كان فى حاجة إليه..

وبعد أربعة أعوام أخرى رغب هذا التاجر فى التقاعد بعد أن بلغ السبعين وليس له ولد يواصل تجارته من بعده لأن كل ذريته من البنات المتزوجات، فدفعت له الثمن الذى قدّره بالتقسيط وأصبح معرض الأدوات المنزلية ملكًا خالصًا لى.. وحافظت على وظيفتى بالبنك إلى أن انتهيت من دفع الأقساط، ثم استقلت وتفرغت لتجارتى وكان قرارًا جريئًا منى لكنى أقدمت عليه معتمدًا على ربى ثم ثقتى فى نفسى.. وأنهى أخى الأصغر دراسته المتوسطة ورغب فى المجىء للقاهرة فاستدعيته وكلفته بالعمل معى، وتركت له شقتى القديمة الصغيرة وانتقلت إلى شقة أفضل وازداد حجم تجارتى بعد عمل أخى معى.. وازدادت أرباحى فاشتريت بعد ثلاثة أعوام محلاً آخر قريبًا من محلى وكتبت لشقيقى ٢٥٪ من ملكية تجارته مقابل أن يديره ويحافظ عليه.. وجاءنى دعاء أمى وأبى لى بالستر والصحة عبر التليفون شكرًا لى على ذلك..

ورأيت أن العمر يجرى بى فتزوجت من كريمة تاجر من معارفى واستقرت حياتى.. وساعدت أبى فى زواج الشقيقتين.. وشعرت بالرضا عن نفسى لذلك.. وجاءنى شقيقى ذات يوم ليقول لى فى خجل إنه معجب بفتاة تعمل فى محل تجارى نتعامل معه ويفكر فى خطبتها لكنه يخشى ألا أوافق على ذلك لأنها من أسرة بسيطة.. فقلت له على الفور: وهل كانت هناك أسرة أكثر بساطة من أسرتنا؟

اخطبها على بركة الله وأنا معك قلبًا وقالبًا فالسعادة لا تتحقق بالمال وحده! فلم أدر إلا وهو ينحنى على يدى ليقبلها قبل أن أسحبها مستغفرًا ربى.. ومُقبلاً شقيقى فى جبهته.

وفوجئت بعد خطبته بأيام بعمى يزورنى فى محلى غاضبًا ومعاتبًا ومتهمًا إياى بالجحود وإنكار فضله علىّ، لأنى لم أوجه شقيقى لخطبة ابنته الثانية بدلاً من تلك الفتاة الغريبة التى لا تليق أسرتها بتاجر كبير مثلى!

وقلت له فى هدوء إننى لا أستطيع إرغام شقيقى على شىء لم يرده من تلقاء نفسه.. وأن زواج الغرباء لا شىء فيه مادام يحبها وتحبه، ومنعنى أدبى من أن أذكّره بأنه قد سبق له أن رفض يدى الممدودة إليه وفضّل علىّ هؤلاء «الغرباء» بسبب فقرى وقلة حيلتى حينذاك.

وتزوج شقيقى وكانت الأيام السابقة لزفافه من أسعد أيام عمرى فقد اجتمع فيها أبى وأمى وشقيقتاى وزوجاهما وأبناؤهما.. ونزل الجميع ضيوفًا علىّ.. وكعادتنا فى بلدتنا أحيينا الليلة السابقة للزفاف فى مسكنى نغنى ونطبل احتفالاً بالعريس بين زغاريد أمى والشقيقتين وزوجتى وابتهاج أبى وافتخاره بى.. فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أمسك بالعصا وأدعو شقيقى للتحطيب معى كما كنا نفعل ونحن طفلان صغيران ونروح ندور حول بعضنا البعض وهو ممسك بعصاه

وأنا بعصاى وسط فرحة الأهل بنا ثم ننهى التحطيب بالعناق الحار.

وفى اليوم التالى زُف لعروسه وسعد بحياته وشاركنى الجميع الفرحة، ما عدا عمى الذى لم يحضر الزفاف ومنع أسرته من المشاركة.

أما أبى وأمى فلقد «اعتقلتهما» فى بيتى شهراً كاملاً بعد الزفاف فى حين رجعت الشقيقتان إلى بلدتنا.. ولم أسمح لأبى وأمى بالعودة إلا بعد أن ألحا علىّ كثيراً برغبتهما فى ذلك، وصحبتهما إلى القطار وقطعت لهما تذكرتين بالدرجة الأولى المكيفة وقلت لأبى إنه قد عمل كثيراً وشقى طويلاً وإننى أريد منه ألا يعمل بعد الآن فى حقله الصغير أو فى حقول الغير، وإنما يؤجر بضعة القراريط التى يملكها لأحد الأهل البسطاء ويستمتع هو بالراحة والجلوس أمام البيت وشرب الشاى والتسامر مع أصدقائه ومحبيه.. فى الصباح.. وفى الأصيل.. بعد أن أكرمنى ربى وأغناه هو عن أن يواصل العمل وهو فى شيخوخته.

وركب أبى وأمى القطار وهما يدعوان لى بالستر فى الدنيا وفى الآخرة.

ولقد أطلت عليك كثيراً وأشعر الآن بأننى يجب أن أنهى خطابى هذا بالوصول إلى المشكلة التى دفعتنى للكتابه لك..

فالمشكلة هى أن ابنة عمى التى أحببتها فى بداية كفاحى بالقاهرة والتى حرمنى منها والدها ـ سامحه الله ـ قد ترملت منذ عامين بعد أن مرض زوجها ـ يرحمه الله ـ قبل وفاته بعدة سنوات بمرض خطير استنزف معظم ماله.. ثم رحل عن الحياة تاركًا لها ثلاثة أبناء.. وغرقت هى فى مشكلات عديدة مع إخوته حول ما تبقى من ميراث.. وتدخلت أنا لديهم لمساعدتها على الحصول على حقها فلم تحصل إلا على أقل القليل..

ومنذ وفاة زوجها.. وعمى يُكثر من زياراته لى.. واسترجاع ذكريات بدايتى معه كأنما يقول لى إنه لولا أن ساعدنى وأتاح لى فرصة العمل معه، لما وصلت لما وصلت إليه الآن.

ثم فاتحنى بعد ذلك صراحةً فى أن من «واجبى» أن أستر ابنته وأتزوجها على زوجتى لكى أرعى أبناءها وأحميهم من غوائل الدهر لأن العمر قد تقدم به ويريد أن يطمئن على ابنته قبل مجىء الأجل المحتوم وإذا لم «أستر» أنا ابنته وأحمها فمن ذا إذن الذى يسترها ويحميها وهى من لحمى ودمى.. ولوالدها حق علىّ؟!

ولست أنكر عليك أننى شعرت فى بداية حديثه معى بشىء من الاضطراب، لكنى سرعان ما تمالكت نفسى وأدركت أننى مقبل على طريق صعب قد يؤثر على حياتى وتجارتى وعملى، فأنا مستقر فى حياتى الزوجية.. ولى من زوجتى طفلان.. وهى سيدة فاضلة

وطيبة وأم حنون على أبنائها.. وتحب أهلى وتحترمهم ولم تشعرنى ذات يوم ببساطة أسرتى بالمقارنة بأسرتها.. ولقد رضيت بحياتى معها وإن كانت مشاعرى تجاهها مختلفة عن مشاعر الحب العنيف الذى شعرت به تجاه ابنة عمى فى شبابى.. فهى مشاعر هادئة لا لوعة فيها ولا وجد.. لكنها وفرت لى الاستقرار والأمان.. وأطلقت قدراتى على العمل حتى حققت أكثر مما كنت أتمناه لنفسى من نجاح مادى.. وتأمين للمستقبل وحياة كريمة لأسرتى ولأهلى.. وبفضل حكمتها اشتريت شقة جميلة.. وأصبح لنا شاليه فى الساحل الشمالى وسيارة فاخرة.. ورصيد محترم.. لكن عمى من ناحية أخرى يُلح علىّ برغبته ويكثر من دعوتى للغداء فى بيته وتشارك زوجته الضغط علىّ، وابنة عمى تبدى تجاهى اهتمامًا شديدًا.. وحنوًا زائدًا.. ويدور الكلام خلال جلساتنا حول حق الرجل فى الزواج من اثنتين وثلاث وأربع بدون أن يعنى ذلك أى ظلم للزوجة الأولى.. إلخ!

وبعصبيته المألوفة يكاد عمى يفقد صبره علىّ فى أحيان كثيرة و«يتشاجر» معى لترددى فى تلبية مطلبه باعتبار ذلك «دينًا له» علىّ ويجب سداده وإلا كنت جاحدًا وناكرًا للجميل! خاصة أن أحواله المادية الآن سيئة وأحوال ابنته كذلك.

ولقد لاحظت أننى قد تأثرت فى الفترة الأخيرة بهذا الضغط

واضطربت أحوالى بعض الشىء ومازلت غير قادر على مواجهة عمى بالرفض القاطع أو القبول الصريح.. علمًا بأن زوجتى لن تقبل بزواجى بابنة عمى بأى حال من الأحوال.. وسوف تتمسك بالانفصال إذا أقدمت عليه! وإننى أرغب فى مساعدة عمى بالفعل لكنه لا يخفى عنى فى الوقت نفسه ما فى إلحاحه علىّ بالزواج من ابنته من «طمع» فىّ.. وضغط علىَّ باتهامى بالجحود وإشعارى بأننى لست «أصيلاً» مثله وهو الذى احتضنتى وأخذ بيدى حين جئت للقاهرة.. فماذا تقول لى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

قيل فى وصف الصحابة الأكرمين ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم كانوا «يكثرون عند الفزع.. ويقلون عند الطمع» بمعنى أنهم كانوا يظهرون عند الشدة.. ويختفون عند توزيع الغنائم! فإذا كان عمك يتحدث عن «الأصالة» فهذا هو أحد أهم معاييرها.. أما أن يرفضك بخشونة وأنت شاب مكافح ويفضّل عليك من هو أقدر منك ماديًا على توفير الحياة اللائقة لابنته مذكرًا أو «معيرًا» إياك وهو الأصح بفقرك وقلة إمكاناتك وسوء أحوال أبيك المادية وكثرة أعبائه، فإذا شققت طريقك فى الحياة وعبرت أمواجها المتلاطمة بنجاح إلى شاطئ الأمان المادى.. جاءك معاتبًا إياك لانصراف شقيقك عن التفكير فى خطبة ابنته الصغرى ومغريًا لك فى مرة ثانية بالزواج من ابنته الأرملة زاعمًا لك أن نكوصك عن ذلك أو ترددك إزاءه يُعد نقصًا فى أصالتك أو نخوتك أو وفائك له، فليس ذلك من المنطق أو العدل فى شىء كثير أو قليل.. ولا تفسير لابتزازه النفسى لك بتهمة الجحود سوى أنه يستخدم كل ما هو متاح له من أسلحة عاطفية لإحراجك وتحقيق ما قد أصبح يرى فيه الآن أنه فى مصلحة ابنته الأرملة ومصلحته، بغض النظر عن عدالة ذلك أو منطقيته.. إذ

كيف يكون «رد الجميل» الذى يتوهمه هو بأن تعرض حياتك العائلية المستقرة للاضطراب. . وأطفالك الصغار للتمزق بين أبويهم؟

إن هناك وسائل عديدة لرد الجميل. . إذا كان ثمة «جميل» لكنه ليس من بينها بكل تأكيد أن تضحى باستقرار حياتك العائلية وربما العملية كذلك لكى تثبت لعمك أنك مازلت على عهد الوفاء مقيم. . أو أنك مازلت الشاب الأصيل الذى كنته.

فالحق أنك كذلك بغير حاجة لإيلام زوجتك. . وتعريضها وأبنائك للمعاناة، كما أنك لست فى حاجة لإثبات أصالتك هذه لأحد خاصة هذا العم الذى لم يكن هو نفسه على قدر الرجاء فيه حين جئت إلى القاهرة شابًا حائرًا غريبًا لا عون لك ولا سند سواه.

ويكفى تمامًا لإثبات أصالتك أنك كنت ومازلت نعم الابن البار بأبويه وإخوته كما كنت ومازلت أيضًا نعم القريب الذى لم ينقطع عن عمه بالرغم مما لاقاه منه.

فإذا كان عمك يعتبر نفسه مساهمًا فيما حققته من نجاح مادى فى الحياة العملية، فإن أهم أسباب نجاحك العملى وتوفيقك فى الحياة إلى جانب إرادتك القوية وصبرك على المكاره وكفاحك المرير ـ فى تقديرى ـ هو برك بأهلك وإعانتك لأبيك وإخوتك على أمرهم وعدم تنكرك إنسانيًا لهذا العم بالرغم من كل شىء، فأى دور إذن لعمك هذا فيما حققت من نجاح؟ وأى دين له عليك يستوجب سداده أن

تفقد زوجتك وتمزق أطفالك وتحرمهم من النشأة الآمنة بين أبويهما؟ إن عمك يستغل فيك يا صديقى أصالتك وحرصك على الوشائج العائلية وعليه بالرغم مما لقيت منه من عنت بلغ فى بعض الأحيان حد صفعك على الملأ وعدم الترفق بك فى ضعفك وقلة حيلتك.

ولقد أخطأ تقدير قدراتك ومميزاتك فى البداية ويريد الآن أن يعوّض بعض ما أضاعه على ابنته بسوء التقدير وخطأ الحسابات.. ولقد قلت من قبل إنه ليس من حق من لم يشارك فى بذر البذور ورعاية النبته الصغيرة أن يأتى فى موسم الحصاد ليطالب بنصيبه من ثمارها فإذا كانت أحوال ابنته المادية ليست على ما يرام الآن فإنك تستطيع إعانتها على أمرها ببعض زكاة مالك كما تستطيع أيضًا إعانة أبيها إذا شاء ذلك بإقراضه ما يقيله من عثرته.. أو حتى بتوجيه بعض زكاتك له إذا كان مستحقًا لذلك والأقربون أولى بالمعروف دائمًا من غيرهم، لكنه ليس من العدل والحكمة أن تكون إعانتك لها بالزواج منها وتعريض حياتك العائلية والعملية للخطر والاضطراب.. ولقد قلت فى رسالتك إن مشاعرك تجاه زوجتك تختلف عن مشاعرك السابقة تجاه ابنة عمك حين رغبت فى الارتباط بها وإن مشاعرك تجاهها «هادئة» وليست ملتهبة كما كانت مشاعرك تجاه الأخرى فى بداية الشباب.. ولقد فات عليك إدراك قيمة هذه المشاعر الهادئة نفسها ومدى عمقها وتغلغلها فى النفس والوجدان..

فالمشاعر الهادئة هذه ليست سطحية ولا ضعيفة الأثر فى نفس من يحملها.. وإنما هى تيار متصل يتسم بالاستمرارية والثبات على خلاف المشاعر الفوّارة التى قد ترتفع إلى الذرى العالية فى بعض المراحل ثم تخمد وتهبط إلى سطح الفتور بعد حين.. وأكثر قصص الزواج نجاحًا وتوفيقًا واستمرارًا إنما اعتمدت على مثل هذا التيار الهادئ المتصل من المشاعر، أكثر مما اعتمدت على الفوران العاطفى المتأرجح دومًا بين الحدة والخمود.

إنها مشاعر ينطبق عليها المثل الإنجليزى القائل: «ببطء.. ولكن بثقة!» وهى أحد أسباب تفرغك الذهنى للعمل والابتكار والنجاح المادى، فلا تستهن بهذه المشاعر أو بعمق تأصلها فى أعماقك، فلسوف تكتشف بعد فوات الأوان أنها الأكثر دوامًا واستمرارًا من تلك المشاعر الملتهبة التى تفور فورانها وتخمد بعد حين، واحرص على زوجتك وأطفالك وحياتك العائلية المحترمة والمستقرة، واعتذر لعمك بحسم عن عدم قدرتك على تلبية مطلبه بالزواج من ابنته راجيًا لها السعادة والتوفيق مع من تلائمها ظروفه.. ولايجىء ارتباطه بها وإنقاذه لها من مشكلتها على حساب أسرته واستقرار حياته.. وشكرًا لك على ما فى رسالتك القيمة هذه من جوانب إيجابية وإنسانية تُعلى من قيم الكفاح والإرادة والبر بالأبوين والأهل.



أنا سيدة فى العقد الثالث من عمرى، متزوجة منذ عدة سنوات من شاب طيب متدين من أسرة طيبة، ولست أكتب لك اليوم لأشكو من مشكلة أعانى منها الآن وإنما لأحدثك عن مشكلة كنت أعانى منها فى الماضى، وأرجو أن تفيد رسالتى هذه غيرى ممن يقرأونها حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه من أخطاء جسيمة. فلقد نشأت فى أسرة صغيرة متوسطة الدخل مكونة من الأب والأم وبنات أنا أكبرهن. وإنى أعترف بأن أمى قد كافحت كثيراً إلى جوار أبى لكى نحصل على أفضل تعليم وأحسن مستوى معيشة ممكن. أما المشكلة التى كنت أعانى منها فكانت فى الأسلوب الذى اتبعته أمنا فى تربيتنا نحن البنات. فقد اتسم دائماً بالصرامة والحدة والأوامر القاطعة، وأظن أن ذلك كان لأنها لم يكن لديها متسع من الوقت لتدليلنا أو لسماع رأينا فى أى موضوع، حتى ولو كان يخصنا. . إذ كانت تعتبر أى محاولة منا للمناقشة مجرد ثرثرة لا جدوى منها، لأننا فى النهاية سننفذ أمرها فلا داعى إذن «لوجع الدماغ» وقد كنت أحس دائماً بالكبت والرغبة فى التمرد على هذا الوضع مع شعورى الشديد بضعف شخصيتى وهوانى، فكنت ألجأ فى سن مبكرة جداً لكتابة خواطرى المليئة بالغِل والكراهية لهذه «السيدة» التى تظن أنها سلبتنى إرادتى

ولا تقيم أى وزن لمشاعرى واحتياجى للعطف والحنان. فما أن بدأت أخطو سنوات المراهقة الأولى حتى ازدادت رغبتى فى أن أثبت لنفسى أننى قادرة على الخروج من أسر سيطرتها المحكمة هذه وعلى إشباع احتياجاتى العاطفية. وما أن التقيت بأول شاب حتى بدأت أخرج معه وأستمتع بكلامه لى وأشعر معه أننى إنسان له كيان وأنى أحظى بحب واهتمام شخص ما، ولم يكن هذا الشاب بالطبع يحبنى ولم يتعد هو أيضًا الشعور بالاستمتاع بالخروج مع فتاة متعطشة للعواطف والحنان، وقد ملّنى وتركنى بعد فترة أو تركته أنا، لا أذكر، ثم تكررت علاقاتى بعد ذلك بنفس الطريقة، وكنت أتلذذ بالشعور بأن أمى لا تدرى شيئًا عن هذه العلاقات، وما أن اقتربت من سن العشرين حتى بدأت أشعر بالذنب وأحاول أن أستميلها إلىّ لأستدر عطفها وحنانها، وأن أشعرها أنى قد كبرت وأنى من الممكن أن تكون لى رغبات وحياة أخرى لا تعلمها. إلا أننى لم أجد سوى السخرية منى.. ومازلت أذكر حتى الآن ردها علىّ بأن تصرفاتى ليست نابعة من إرادتى وإنما من تربيتها لى التى كونت شخصيتى وإنى لا أملك سوى أن أكون ماأرادتنى هى أن أكونه. مما أثار تمردى مرة أخرى وبصورة أشد فتورطت فى علاقات مع زملائى فى الجامعة وساعدنى على ذلك أننى أتمتع بقدر كبير من الجمال. ولولا أن الله قد أراد لى الهداية فيما بعد لكنت قد فقدت أعز ماتملك الفتاة

واستسلمت للضياع. لكن ضميرى استيقظ فى النهاية والحمد لله وبدأت أشعر أنى أمتهن نفسى وأنتقم منها وليس من أمي، فبدأ فكرى يتجه اتجاهًا دينيًا وأدركت أن الزواج هو الذى سينقذنى من هذا السقوط فوافقت على أول رجل تقدم لى وتوسمت فيه أنه شخص نبيل، وعلى خلق ودين، وتزوجته وعاهدت الله أن أحافظ على زوجى وأحرص عليه وأن أبعد عن كل ما يمكن أن يؤذيه أو يؤذى مشاعره، وكان فضل الله علىّ كبيرًا إذ أحببت زوجى حبًا شديدًا وحظيت بحبه وحنانه، مما عوّضنى عن سنوات الحرمان التى قضيتها فى بيت أبى.

وإنى أكتب لك هذه الرسالة لأنى أعلم أن أمى ليست نموذجًا منفردًا فى مجتمعنا وإنما هناك أمهات لم يتعلمن كيف يبذلن من وقتهن ومشاعرهن وعطفهن لأبنائهن ما يبذلن مثله فى العمل داخل المنزل وخارجه، وأرجو من كل فتاة أن تحافظ على سلوكها وألا تجعل أى سبب يدفعها للقيام بأى تصرف قد تندم عليه فيما بعد أشد الندم لأن كل تصرف تقوم به دون علم أهلها يعتبر خيانة للأمانة سيحاسبها الله عليه. كما أكتب لك هذه الرسالة لأنى بدأت ألاحظ على أختى الصغيرة نفس المشاعر التى كنت أشعر بها وأنا فى مثل سنها، وأمى بالطبع مازالت تتعامل معها بنفس الأسلوب القديم. والأمر الذى يثير الأسى والسخرية فى نفس

الوقت هو أن أمى تذكر دائمًا لكل من يشكو لها من صعوبة تربية الأولاد، أننا لم نكن أبدًا مصدر تعب أو قلق لها على مدى فترة تربيتنا! فربما تكون رسالتى هذه جرس تنبيه لأمى التى لا أستطيع مواجهتها بالحقيقة حتى الآن ليس لأنى أخاف منها حيث لم يعد لها سلطان علىّ بالطبع، ولكن لأنى أخاف أن أصدمها بما قد لا تتحمله من حقائق قاسية فالحق أننى مازلت على ثقة بالرغم من جفائها معى من أنها لم تكن تقصد أى إساءة لى أو لأخواتى ولهذا فهى لا تستحق منى أن أوذى مشاعرها.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول

رسالتك ياسيدتى تكشف لنا عن حقائق مفزعة عما يمكن أن تؤدى إليه العلاقة غير السوية بين الأم وابنتها إذا افتقدت الدفء العاطفى والصداقة الراشدة والمساحة الطبيعية للتفاهم والحوار بينهما.

وبالرغم من ذلك فإنى لم أشعر بالارتياح لتبرير إقدامك على خوض تجربة العبث والاندفاع خلال فترة معينة من حياتك، بأنك إنما قد فعلت ذلك كرد فعل «طبيعى» لجفاء العلاقة بينك وبين والدتك، أو بزعم الانتقام المعنوى من تسلطها عليك.. أو بحجة إشباع رغبتك فى الإحساس بالجدارة واجتذاب اهتمام الآخرين وحبهم. فكل هذه المبررات وبالرغم من واقعية بعضها لا تبرر أبدًا الاقتراب من دائرة الخطر والتحرر من القيود الأخلاقية، حتى ولو ساعدتنا على فهم بعض الدوافع، فإذا كان أسلوب والدتك فى التربية الجافة القائمة على السيطرة الكاملة على حياة الأبناء وقهر إرادتهم وإملاء الرغبات عليهم دون إقناع ولا حوار، أسلوبًا خاطئًا وهو كذلك بكل تأكيد، فإن الاحتجاج عليه لا يكون بالعبث والاندفاع إلى

الطريـق الخاطـئ، لأن الخطـأ لا يبـرر الخطـأ. . ولأنـه شـتان بـين خطأ أم اعتمدت أسلوبًا جافًا فى التربيـة يعتمـد على القهـر ويفتقـد إلى دفء الصداقة بينها وبين بناتهـا، وبـين خطـأ ابنـة «انتقمـت» منها فى نفسها حتى أوشكت أن تمضى فى طريق الغواية حتى نهايته المظلمة لولا أن رحمها ربها واستيقظ ضميرها وهى على شفا حفرة من الضياع.

فأسلوب والدتك فى النهاية وبالرغم من إدانتى له واختلافى معه هو اجتهاد خاطئ فى التربية قد يشفع لها فيه، أو يخفف من بعض وزره، حسن النية وسلامة المقصد بدليل أنك أنت نفسك قد أدركت ذلك بعد فوات الأوان وأشفقت عليها من إيلام مشاعرها. . أما احتجاجك على هذا الأسلوب بما فعلت بنفسك خلال فترة جاهليتك الأولى. . فلا شفاعة فيه ولا أعذار اللهم إلا صغر السن وقلة الخبرة وسوء الفهم. . وضعف الوازع الدينى وبعض هذه الأعذار أقبح من الذنب نفسه كضعف القيم الدينية. . وسوء فهم مقصد الأم من أسلوبها الخاطئ فى التربية.

لكن لأنه لا يلام المرء على أمر قد رجع عنه وندم عليه فلن أطيل الحديث كثيرًا فى هذه الناحية. . وإنما سأقول لك فقط إنك وقد خضت تجربة الخطأ ودفعت ثمنها غاليًا من وخز الضمـير، مطالبـةً الآن بحماية شقيقتك الصغرى من ملامسة مياه هذه البحيرة السامة،

قبل أن تخوض فيها وتجرفها تياراتها، ومن حقها عليك الآن أن تجنبيها نفس المحنة ونفس الضياع وأن ترشديها إلى مافيه صلاح أمرها. . والأفضل هو أن توجهى بعض اهتمامك لها وأن تنبهى والدتك إلى ضرورة تصحيح نمط علاقتها بها وتوجيه الوقت الكافى لاكتساب صداقتها. . وإشباع احتياجاتها من العاطفة والحنان والإحساس بالجدارة لكيلا تطلب كل ذلك من الطريق الآخر. . فالحق أننى توقفت متأملاً أمام عبارة خطيرة فى رسالتك تقولين فيها إن والدتك ليست نموذجًا منفردًا بين الأمهات، وإن منهن من لا يوجهن للعلاقة الإنسانية بينهن وبين بناتهن بعض ما يوجهنه من وقت لأعمال البيت أو لعملهن خارجه، وليس أدل على الخلل الجسيم فى ترتيب الأولويات الجديرة باهتمام الآباء والأمهات من مثل هذا الخلل. . فالأبناء ينبغى لهم أن يكونوا فوق قمة هرم اهتمامات الآباء والأمهات ومن بعدهم تأتى أعمال البيت وعمل الأمهات فى الخارج وكل شىء آخر الحياة.

فلتكن إذن رسالتك هذه كما تقولين جرس الخطر لبعض من تشغلهن شئون الحياة المادية عن بعث الدفء فى علاقتهن ببناتهن وأبنائهن - ولتكن كذلك تنبيها صارخًا إلى حاجة الأبناء وخاصة البنات منهم إلى صداقة الأمهات والآباء واهتمامهم ووقتهم، لكيلا يضلوا الطريق ويلتمسوا كل ذلك من المورد الخاطئ.



أنا رجل أبلغ من العمر ٣٦ عامًا ومتزوج ولى طفلان جميلان أكبرهما فى السادسة، والآخر فى الرابعة من عمره، وقد تزوجت منذ سبع سنوات بزميلة لى بالعمل بعد فترة خطبة استمرت عامين، وأكرمنا الله بسكن جيد من أربع غرف قمنا بتأثيثه قبل الزواج، وقد بدأت مشكلتى منذ فترة الخطبة حيث تبين لى أن خطيبتى عنيدة للغاية وتتعامل معى بندية مبالغ فيها، وقد تسألنى ولماذا إذن استكملت مشوار الارتباط بها بالرغم من اكتشافك لعنادها الشديد فى فترة الخطبة، وأجيب على سؤالك بأنه كانت لدىَّ اعتبارات أخرى حالت بينى وبين إنهاء الارتباط قبل إتمامه.. أولها خوفى من الله أن أكون مخطئا فى هذا القرار بعد أن خطبتها ودخلت بيتها وتهيأ أهلها لاستكمال المشروع، والثانى هو أنها يتيمة الأب، والثالث هو الأمل فى تغير شخصيتها بعد الزواج، وهكذا تزوجنا وحدثت بيننا بعض الخلافات على فترات متفاوتة بسبب عنادها وردودها الجافة فى أغلب المواقف، ثم رزقنا الله بطفلتنا الأولى وحصلت زوجتى على أجازة من العمل وتفرغت لرعايتها إلى أن بلغت الثالثة.. ورجعت للعمل من جديد.. وكنا نترك طفلتنا فى دار الحضانة إلى أن نرجع من العمل بعد الثالثة لاستلامها فنجدها نائمة وحدها بالحضانة والفراشون يقومون بأعمال النظافة وكنس الأتربة مما أدى إلى

إصابة ابنتى بحساسية فى صدرها وهى مازالت طفلة فى عمر الزهور.

ومضت الأيام ورزقنا الله بالطفل الثانى فلم تمهله زوجتى كى يستمتع بحنانها ورعايته سوى بضعة شهور ثم أصرت على العودة للعمل مرة أخرى، وشاءت الظروف أن تدخل شركتنا دائرة الخصخصة وعرضت الإدارة على العاملين بها تعويضات مالية نظير ترك العمل، فقررت الاستقالة والحصول على التعويض لكى أبدأ حياة جديدة فى مكان آخر، ووفقنى الله بالفعل فى فرصة عمل جيدة فى موقع مرموق وبدخل مناسب، وقررت زوجتى بمحض إرادتها بعد ذلك ترك العمل والحصول على التعويض وكان تعليقى على قرارها هو أن الله سبحانه وتعالى قد عوّضها بمبلغ تستطيع إيداعه فى البنك والحصول منه على عائد شهرى مناسب فتستطيع التفرغ لرعاية طفليها وهما فى مرحلة من العمر يحتاجان فيها إلى رعايتها أكثر من أى شىء آخر خاصة وأن عملى يتطلب قضاء وقت طويل فيه، وأمضت زوجتى قرابة العام متفرغة للبيت والأسرة ثم فوجئت بها تقرر البحث عن عمل من جديد وحاولت إقناعها بأن البيت والطفلين وزوجها يحتاجون إليها، وأن عمر الطفلين ليس مناسبًا لعملها الآن.. فلم تقتنع بشىء ومضت فى البحث عن عمل حتى وجدته، وراحت تعد الأوراق اللازمة لاستلام العمل دون أن تأبه

لاعتراضى.. ولجأت إلى أمها وشرحت لها أننا لسنا فى حاجة إلى عائد عملها وأنها ستعود إلى ترك الطفلين كل يوم من الصباح حتى الخامسة مساء، وأننى منذ تزوجنا وأنا أطالبها بالتفرغ للأسرة بلا طائل ووافقتنى والدتها فى رأيى وكذلك خالها الأكبر الذى يعتبر والدها وحاولا إثناءها عن رغبتها دون فائدة ورجعت للحوار معها من جديد وسألتها لماذا تحتاج للعمل وظروفنا أفضل من كثيرين غيرنا ولدينا طفلان فى سن يحتاجان فيها لرعاية الأم؟ فلم أسمع منها سوى: ولماذا لا أعمل لكى أستطيع شراء بوتاجاز كبير وديب فريزر وأنتريه جديد ونعيد طلاء الشقة؟.. وأجبتها بأننا سنشترى كل ذلك ولكن بالتدريج.. وأن رزق الله لعباده ليس مالاً فقط وقد وهبنا سبحانه وتعالى الأبناء والصحة والرزق الطيب.. فلم تجد محاولاتى معها أى نتيجة، وأمام إصرارها على العمل هددتها بأنها إذا أصرت على ترك الطفلين والنزول للعمل فسوف أهجر البيت إلى أن ترجع عن عنادها. ونفذت تهديدى بالفعل وهجرت البيت وأقمت لدى أهلى بعد أن رفضت التراجع عن موقفها بالرغم من محاولات أهلى وأهلها معها.

وها قد مضت ٥ شهور على هجرى لبيتى دون أية خطوة إيجابية من جانب زوجتى.. ولقد حكم كل من تدخل بينى وبينها بأنها

عنيدة للغاية ولم تضع أبناءها وزوجها فى الاعتبار عند اتخاذها لهذا الموقف العنيد ولولا الطفلان لكان قرارى بالانفصال بعد كل ما عانيته من عناد زوجتى وردودها الجافة خلال معاشرتى لها سامحها الله وهداها لكيلا يتعرض بيتنا الجميل للانهيار.. فماذا تقول لى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

العناد دليل الغباء وافتقاد الحكمة والمرونة. . كما أنه دائمًا أقصر الطرق إلى التصادم مع الآخرين والإضرار بالنفس وبالغير.

ولقد تطور الموقف الآن بينك وبين زوجتك حتى أصبح صراعًا بين إرادتين لا نهاية له إلا بهزيمة أحد الطرفين وانتصار الآخر، كما كان الحال في روما القديمة حين كان الأباطرة يتلهون بمشاهدة مباريات المصارعة حتى الموت بين سجينين توهب للفائز منهما الحياة. . ويلقى الآخر مصرعه قربانًا لحرية المنتصر.

وليس هكذا ينبغى أن تكون العلاقة السوية بين شريكى الحياة اللذين تربط بينهما أواصر المودة والرحمة والتفاهم والحرص على المصلحة المشتركة للأسرة والأبناء.

وفى تقديرى أن زوجتك قد أخطأت بمضيها فى اتخاذ إجراءاتها للالتحاق بالعمل الجديد بالرغم من رفضك الصريح لعودتها للعمل وسعى أهلها الحثيث لإثنائها عن رغبتها فى ذلك حرصًا على كيان الأسرة والطفلين، فلقد أسقطت بذلك قوامتك عليها وأعلنت التحدى السافر لإرادتك، والعمل فى النهاية حق للمرأة وليس واجبًا

مقدسًا عليها. . ومن الحكمة أن تتخلى عنه بصفة مؤقتة أو دائمة إذا دعتها ظروف أطفالها للتفرغ لهم أو اعترض زوجها عليه لأسباب يقدرها ويشاركه الأهل فى حكمة تقديره. . خاصة إذا لم تفلح الزوجة فى إقناعه بالحوار والتفاهم بقبوله. . وفى كل الأحوال فإن الحوار هو السبيل الوحيد للتفاهم حول هذا الأمر وليس الضغط والإكراه والتصلب والمراهنة على عجز الطرف الآخر عن الصمود على موقفه للنهاية. . كما تعتمد زوجتك الآن على هذا الرهان وتأمل فى رضوخك للأمر الواقع وعودتك للبيت على أساس التسليم به.

ولقد يكون الحل الوسط فى هذا الموقف هو أن تكتفى زوجتك بما حققته فى عملها خلال الشهور الماضية، وتبرهن على مرونتها وحرصها على زوجها وطفليها وبيتها بالاستقالة من العمل والتفرغ للأسرة لعامين آخرين أو ثلاثة يشتد خلالها عود طفليها ويصبح من حقها بعدها التطلع للعمل وتحقيق طموحاتها فيه.

أنا شاب فى الثلاثين من عمرى شاء لى القدر أن أفقد أمى وأنا فى سن المراهقة.. فنشأت بين إخوتى وتدرجت فى التعليم حتى بلغت عامى الثانى بإحدى جامعات الإقليم.. وفى الأجازة توجهت إلى القاهرة للعمل فى الصيف، وتعرفت فى دائرة السكن بفتاة تبادلت معها الإعجاب والحب وارتبطت بها وصارحت إخوتى بنيتى فى الارتباط بها، وبعد فترة أخرى خطبتها.. وأنهيت خلال عامين من الخطبة كل التزاماتى من حيث توفير المسكن والأثاث إلخ.. وذات يوم خرجت من عملى بالقاهرة إلى بيت خطيبتى فلم أجدها فيه وانتظرتها حتى التاسعة مساء فإذا بها تعود وهى تضع الماكياج الثقيل الذى لم أرها به من قبل.. وسألتها عما أخرها، ففوجئت بها تصيح فى وجهى بأنها قد أنهت كل ما بينى وبينها.. وتطلب منى أن أدعها لشأنها.. وصعقت حين سمعت ذلك وحاولت معاتبتها فلم أجد لديها أى استعداد لتقبل عتابى.. وانصرفت حزينًا.. ووسطت بعض أهلها لديها فى أن تعدل عن موقفها المفاجئ ففشلت كل المساعى.. وتم فسخ الخطبة بالفعل.. وساءت حالتى المعنوية والصحية.. وعشت ستة أشهر كاملة وأنا شبه مريض، وانتهى الأمر بدخولى المستشفى بالفعل وإجراء جراحة لى.. وغادرت المستشفى وقد فقدت الثقة فى نفسى وفى الحب

وفى كل الفتيات، وبعد عامين آخرين تزوجت من فتاة طيبة من مدينتى الصغيرة وأنجبت منها طفلاً وعشت معها حياة هادئة وبلا مشاكل، ونظمت حياتى بحيث أقضى أيام الأسبوع بالقاهرة، حيث أعمل وأرجع إلى مدينتى القريبة لأمضى يومين مع زوجتى وطفلى.. وبعد ثمانى سنوات من فسخ خطبتى لفتاتى القديمة التقيت بها بالمصادفة قبل أسابيع وعرفت منها أنها قد تزوجت وأنجبت طفلاً ثم طلقت ورجعت للإقامة مع أسرتها.. وبدأ مسلسل إحياء الحب القديم وغير ذلك من سيناريو هذا الفيلم الهندى المألوف.

وقد وجدت نفسى بعد قليل أسعى إلى «خطيئتى».. أو خطيبتى الأولى وأتحدث معها عن الزواج ليس لأننى مازلت أحبها.. وإنما لكى أنتقم منها بسبب ما فعلته بى فى الماضى.. وبسبب جحودها وتحطيمها لقلبى بلا رحمة من قبل. وكلما استمعت إلى صوت العقل.. وصرفت النظر عن التفكير فيها وجدتنى فى شوق لأن أشفى غليلى منها وأن أحطم قلبها كما حطمت قلبى، وأذاقتنى مرارة الحرمان من الحب.. ومرارة جحودها وتنكرها لى.. إننى حائر ولم أستقر بعد على رأى.. وزوجتى الطيبة تلوح لى أحيانًا فى مخيلتى فيُخيل إلىَّ أنها تعاتبنى وتلومنى على ما أفكر فيه.. فماذا أفعل؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول

الانتقام الحقيقى من الفتاة التى حطمت قلبك وتنكرت لك من قبل ـ إن كان ثمة ضرورة للانتقام من الأصل ـ هو أن تسعد بحياتك مع زوجتك الطيبة وطفلك الصغير.. وهو أيضًا فى أن تُشعر تلك الفتاة بأنها قد خرجت من حياتك إلى الأبد.. فتعرف أنها قد خسرت السعادة والأمان معك حين ضحت بك على مذبح تقلب أهوائها وتطلعها للارتباط بغيرك، ولا عجب فى ذلك فخير انتقام ممن أساءوا إلينا هو ألا نصبح مثلهم قادرين على الإساءة للغير.. وأن نسقطهم من تفكيرنا نهائيًا فلا نسمح لهم بأن يشغلوا من فكرنا ما لا يستحقونه من مساحة حتى ولو كانت مساحة الرغبة فى الانتقام منهم أو التشفى فيهم.. فالتشفى فى الآخرين «طرف من العجز» كما قال أحد الأعراب ذات يوم ناصحًا الخليفة العباسى المنصور، وزعمك لنفسك أنك ترغب فى الزواج من فتاتك القديمة لا لشىء إلا لكى تنتقم من إساءتها السابقة لك وتحطيمها لقلبك، نوع من خداع النفس لايقبل به الفضلاء لأنفسهم، إذ كيف يكون الانتقام منها بإيلام زوجتك الطيبة التى لم تسئ إليك من قبل وأعادت إليك ثقتك المفقودة فى النفس وفى الجنس الآخر؟

وكيف يكون الانتقام ممن تنكرت لك قبل سنوات، بتعريض طفلك الصغير للتمزق بين أبويه إذا ساءت الأحوال بينك وبين زوجتك بعد ارتباطك بالأخرى وانتهى الأمر بالانفصال بينكما؟

بل كيف يكون هذا «الانتقام» بأن تكسب فتاتك الغادرة «زوجًا» يحدب عليها مهما زعم لنفسه التشفى فيها.. وتخسر زوجتك المخلصة التى ضمدت جراح قلبك وارتضتك زوجًا كانت سعيدة به وراضية عن حياتها معه؟ وأية حياة هذه ستقوم بينك وبين هذه السيدة لو تزوجتها بنية الانتقام والإساءة فتمضى أيامك معها متوترًا متحفزًا بالرغبة فى الإيذاء، أو تزوجتها بنية استعادة الحب القديم فتمضى حياتك معها.. ممرورًا بذكريات الخيانة القديمة والشك فى إخلاصها لك؟ ياصديقى اصرف النظر نهائيًا عن الارتباط بهذه السيدة ودعها لحياتها وأقدارها كما طلبت منك ذات يوم قبل ثمانى سنوات، ولا تفتعل الأسباب والمبررات للاقتراب منها، فلقد لفظتك وهى فى عنفوان قوتها.. وليس مما يشرفك أن تقبل الآن بك وهى فى ضعفها. وشكرًا..

أكتب إليك وكلى أمل فى ألا تضن علىّ بمشورتك. . فأنا سيدة فى السابعة والثلاثين من عمرى أشغل مركزًا مرموقًا وظروفى المادية جيدة. . ولقد تزوجت منذ عشر سنوات من رجل كريم ميسور الحال ويشغل مركزًا مرموقًا هو أيضًا، ورزقنى الله بعد زواجى منه بعام واحد بطفل جميل يبلغ عمره الآن تسع سنوات ويتمتع ـ والحمد لله ـ بأخلاق ممتازة ومتفوق دراسيًا وذكى جدًا وأحمد الله عليه كثيرًا.

وبعد عامين من إنجابى لطفلى حملت فى طفل آخر ثم تعسرت فى ولادته فلم ير الحياة. . وأجريت لى فى المستشفى عملية جراحية ومكثت فى العناية المركزة فترة طويلة إلى أن كتب الله لى الشفاء، وقررت تأجيل الإنجاب بعد ذلك إلى أن أسترد صحتى ووافقنى زوجى على ذلك.



ثم حدث بعد ذلك أن تأخر الحمل كثيرًا وطرقت أبواب أكبر الأطباء وخضعت لمشارطهم أكثر من مرة وتكلفت الكثير والكثير ولم يحدث الحمل مرة أخرى بالرغم من تأكيد الأطباء لى أنه ليس هناك سبب محدد لعدم الحمل، وإنما هى إرادة الله سبحانه وتعالى. . فتقبلت إرادته ورضيت بها وحمدت ربى على أن وهبنى ابنى ورأيت نفسى أفضل حالاً من كثيرين غيرى حرموا من نعمة الإنجاب. . لكن

المشكلة هى أن زوجى يريد أطفالاً آخرين وحجته فى ذلك أنه لا يريد لابنه أن ينشأ وحيدًا ويرغب فى أن يكون له إخوة يساندونه فى الحياة، ولست أختلف مع زوجى فى ذلك لكن ماذا أفعل لكى أحقق له هذه الرغبة وأنا لم أدخر وسعًا.. وتكلفت الكثير من مالى وصحتى لتحقيق أمنيته هذه؟.

لقد عرض علىّ زوجى أن يتزوج من أخرى.. ويريد منى أن أتقبل ذلك وأن أعتبره شيئًا عاديًا فى حياتى، وأن يجمع بيننا ويرى أن ذلك من حقه وأن اعتراضى عليه سيكون ذنبًا كبيرًا لى لأنه متمسك بى كما يقول ولا يريد أن يفرط فىّ.. غير أنى قلت له إنه إذا أراد أن يتزوج من أخرى فهذا حقه ولا منازع له فيه لكن عليه أولاً أن يطلقنى ثم يبدأ حياته الجديدة بعد ذلك مع إنسانة أخرى.

ولست أنكر شرع الله أو أنكر حق الرجل فى الجمع بين زوجتين إذا اقتضت الضرورة ذلك لكننى إنسانة.. ومن حقى أيضًا أن أرفض هذا الوضع وأن أتحسب لما سوف يكون عليه مركزى ووضعى وحياتى ورد فعل المجتمع والأهل لذلك.. ثم من يضمن له أن تكون الإنسانة التى سيتزوجها كريمة معه ومع أهله مثلى؟ ومن يضمن له أن أبناءه الذين سينجبهم منها ـ إذا شاء الله ـ سيكونون أسوياء وإخوة أوفياء لابننا وليسوا سببًا لتعاسته فى المستقبل إذا

فسدت مشاعرهم تجاهه؟ ومن يدريه أن أمهم لن تزرع الحقد والكره في نفوسهم تجاه أخيهم هذا أو تشعرهم بتميزه عنهم.. أو تحرّض زوجها على تمييز أبنائها عنه فيحقد هو عليهم؟.. وكم من آباء أنجبوا أبناءً كثيرين ثم رحلوا عن الحياة قبل أن يكملوا رسالتهم معهم وتركوهم للحياة وقسوتها يواجهون مرارة اليتم وافتقاد الأب.

إننى لم أفقد الأمل فى الله وأحس فى داخلى بأن الله سوف يعوضنى خيراً عن طفلى الثانى الذى لم ير الحياة وعن معاناتى الطويلة فى العلاج لكن زوجى لا يصبر.. فهل توافقنى فى رأيى؟.. وهل ترى فى رفضى لفكرة الجمع بينى وبين زوجة أخرى ظلمًا منى لزوجى كما يقول لى؟.

يكون ظلمًا له بالفعل أن تمنعيه من الزواج من أخرى لكى ينجب منها إخوة لابنه الوحيد كما يريد ويتمنى إذا كنت ترفضين الطلاق منه وتأبين عليه فى الوقت نفسه هذا الزواج، وتملكين عليه من وسائل القهر ما يرغمه على الالتزام بما تريدين.. ولأن ذلك متعذر بالفعل عمليًا ومنطقيًا فلا ظلم له فى موقفك ولا إثم عليك فيه، وإنما يستطيع زوجك إذا تمسك برغبته ورفض أن يصبر عليك عسى أن يحقق لك الله أملك الحسير فى الإنجاب مرة أخرى، أو إذا لم يرض بما أنعم عليه به ربه من نعمة إنجاب طفله الوحيد، يستطيع أن يجيبك إلى رغبتك فى الطلاق ثم يبدأ حياة جديدة يحقق فيها ما يرجوه لنفسه.. لكن المشكلة الأزلية هى أن كل إنسان منا ينظر إلى الأمر المطروح عليه من زاوية الرؤية الخاصة به وحده فيرى نفسه محقًا تمامًا فى موقفه.. ويرى الآخرين يفتئتون على الحقيقة، فيختلط الحق لديه برغباته واعتباراته الذاتية وتضيع الحدود الفاصلة بينهما ونفتقد جميعًا النظر الموضوعى للأشياء.

وعفوًا ياسيدتى إذا قلت لك إن نفس هذه النظرة الشخصية للأمر قد تنسحب عليك أنت أيضًا بالرغم من إيمانى الدائم بحق الزوجة

الشرعى فى تخييرها بين الاستمرار مع زوجها وبين تسريحها بإحسان إذا رغب فى الزواج من أخرى. . وكذلك بحقها فى رفض زواج زوجها من أخرى وتمسكها بالانفصال عنه إن لم تقبل بمشاركة امرأة أخرى لها فيه. . فأما أن هذه النظرة غير الموضوعية تنسحب عليك أيضًا فلأنك لا تكتفين بالتمسك بهذا الحق الشرعى والإنسانى لك. . ولا تقيمين دعواك فى رفض زواج زوجك من أخرى للإنجاب، على أن كل زوجة فى الوجود لا يسعدها وجود امرأة أخرى فى حياة زوجها، وترغب دائمًا فى أن تنفرد بزوجها دون غيرها من النساء. . مهما تكن مبرراته للزواج عليها، ولا على أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليكما بابن جميل ولم يحرمكما من الإنجاب كلية. . وقد يكون من الخير لكما أن تقبلا بما اختاره الله لكما، وليس هناك من مبرر قوى لأن تضطرب حياتكما بزواج زوجك من أخرى وما سوف يترتب عليه من مشكلات بينك وبينه إلخ. وإنما تتجاوزين ذلك إلى محاولة إثبات فساد الفكرة نفسها وترجيح فشلها فى تحقيق ما يرغبه زوجك لنفسه من إنجاب إخوة آخرين لابنه الوحيد، وتقيمين دعواك كلها فى ذلك على احتمالات قد تتحقق كلها أو بعضها وقد لا تتحقق كلها ولا بعضها. . والمسعى واحد لديك ولديه بالرغم من اختلاف الهدف، فهدفه هو إقناعك بقبول رغبته فى الزواج من أخرى للإنجاب بغير خسائر عاطفية وعائلية يتكبدها على جبهتك.

وهدفك هو إقناعه بالتراجع عن فكرة الزواج من أجل الإنجاب والقبول بالوضع الحالى لكيلا تشقى بوجود امرأة أخرى فى حياته.

وكل منكما فى سبيل تحقيق هدفه يلوى عنق الحقيقة لإثبات صحة موقفه وأحقيته فيه.

وكل منكما مطالب بأن يكون أكثر عدلاً مع الآخر مما هو عليه الآن فيقول لك زوجك إنه يريد الزواج من أخرى للإنجاب بغير أن يحاول إيهامك بأن رفضك لذلك يكون ظلمًا له أو إثمًا عليك وتقولين أنت له إنك ترفضين أن تشاركك فيه امرأة أخرى، ولن تسعدى بذلك ولن تسمحى به ومن حقك الحصول على الطلاق قبل أن يبدأ حياته الجديدة، وأن زواجه هذا سيكون له ثمن غال هو تهدم عشه الأول وحرمان طفله من النشأة الطبيعية بين أبويه.. وافتقاد زوجته الأولى وحياته الهادئة معها.

ولا داعى لتخريج الحجج والمبررات لكى يثبت كل منكما للآخر أن الحق فى جانبه وحده.. وشكراً.

أبكتنى رسالة «البيت الجميل» للطفلة الحائرة التى تعيش مع شقيقها البالغ من العمر اثنى عشر عامًا فقط فى مسكن مستقل بعيدًا عن أمها وأبيها، وتشكو افتقادها وافتقاد شقيقها لأمهما، لأن والدها يرفض بإصرار أن يسمح للأم المطلقة بأن تعيش مع ابنها وابنتها فى المسكن الذى وفّره لهما ولا يسمح لها برؤيتهما إلا مرة كل أسبوعين ويحرم عليهما الاتصال بها تليفونيًا، كما أن الأم لا تستطيع توفير مسكن يجمع بينها وبين الطفلين، فى حين يعيش الأب فى «بيت جميل» مع زوجته الجديدة وأطفاله منها. وفى ختام رسالتها المؤلمة هذه تطلب منك الطفلة أن «تجد» لأمها رجلاً متدينًا يتزوجها ويقبل أن يعيش معها الطفلان ويصبح أبًا لهما لكى يجتمع شمل الأم وابنها وابنتها تحت سقف واحد.

وقد يتساءل بعض القراء.. هل هناك مثل هذا الشخص الذى يرحب بسيدة مطلقة وأبنائها ويصبح أبًا رحيمًا وعادلاً لهؤلاء الأبناء ويتكفل بهم ماديًا ومعنويًا ويحنو عليهم بعد أن يكف الأب الطبيعى يده عن الإنفاق عليهما تنفيذًا لشرطه إذا ضمتهم الأم لحضانتها؟.. ورسالتى هذه قد تجيب على هذا السؤال.

فأنا شاب انفصل أبى عن أمى منذ أكثر من ٢٢ عامًا..

وتنبهت للحياة فوجدتنى طفلاً صغيراً يلهو فى بيت مزدحم بالبنات والأولاد.. وأمى الشابة الجميلة ترعانى وأنام على صدرها كل ليلة فى غرفة تنفرد بها فى المسكن المزدحم، وفى البيت «أم» أخرى أكبر منها سنًا وأكثر تفرغًا لملاعبتى ورعايتى، و «أب» كبير السن لا يرانى مرة إلا ويعطينى شيئًا من الحلوى، وهناك «رجل» آخر يظهر كل أسبوعين أو ثلاثة فى صالون الشقة.. فيتكهرب الجو فى البيت وتختفى أمى فى غرفتها، وتسرع الأم الأخرى الكبيرة بمساعدتى على ارتداء ملابسى وهى توصينى بالتزام الهدوء والأدب مع هذا الرجل الذى يجلس فى الصالون لأنه «أبوك».. وتدفعنى دفعًا إلى مصافحته والخروج معه من البيت فأخرج بعد شىء من المقاومة، وفى الخارج يحاول هذا الرجل إرضائى وشراء الحلوى واللعب لى.. فأنسى مخاوفى بعض الشىء وأتجاوب معه.. ونتمشى فى الشوارع.. أو نذهب إلى الملاهى.. أو نزور رجلاً كبيراً آخر وسيدة كبيرة أخرى يقول لى إنهما جدى وجدتى، ثم يعيدنى إلى البيت.. فأرجع ومشاعرى تتراوح بين الابتهاج بهذه الفسحة وبين الارتياح لعودتى إلى أمى الشابة وفى غرفة النوم تنفرد بى أمى وتسألنى باهتمام عما فعلت مع هذا الرجل وماذا قال وماذا قلت له.. وهل سألنى عنها؟ أو لم يقل لى شيئًا عنها؟ أو لم يطلب منى إبلاغها أى شىء؟.. فأجيبها على تساؤلاتها بما يعن لى وقتها ويفوتنى لصغر سنى بالطبع إدراك ماوراء هذه التساؤلات المحرومة ولم أفهم إلا بعد سنوات

سبب اكتئابها ووجومها حين أقول لها إنه لم يسألنى عنها ولم يطلب منى أن «أسلم» له عليها أو أبلغها بأى شىء!

وتمضى بى الأيام على هذا النحو، ثم يظهر فى بيتنا رجل آخر ألاحظ اهتمام أمى الكبير وأبى الكبير به وحفاوتهما الزائدة بزيارته والجلوس معه فى الصالون.. وألاحظ أيضًا أن أمى تطلب منى حين يجىء الخروج من غرفتها وتغلق بابها عليها فيها لفترة طويلة ثم تخرج بعدها وهى «كالعروسة» فى كامل زينتها وملابسها، وتدخل الصالون وأتبعها إليه.. وأجلس إلى جوارها وهى تتبادل الكلام مع هذا الرجل.. وأجده يحاول دائمًا الحديث معى وسؤالى عن ألعابى وأصدقائى، وأشعر بعد قليل من النفور المبدئى منه بالاعتياد عليه وأبدأ فى الاستجابة لمداعباته، وأرى وجه أمى الجميل يشرق بالبهجة حين ترانى أتحدث إليه وآلفه.. ثم ينشغل البيت بأشياء جليلة.. وتكثر أمى الصغيرة والكبيرة من الخروج دون اصطحابى معهما.. وأفتقد أمى.. وأشكو للأب الآخر الكبير فينظر إلىّ بهدوء ويقول لى إنه سيحدثنى «كرجل» ويتوقع منى أن أكون عند حسن ظنه.. ثم يُسر إلىَّ بالخبر المهم وهو أن أمى سوف «تتزوج» من هذا الرجل الذى آراه فى الصالون خلال أيام وسوف يسافران معًا فى أجازة، وبعد عودتهما سوف أعيش معهما فى مسكن جميل.. وأتمتع بحنان أمى وعطف هذا الرجل الطيب.. ولا أفهم مما يقوله شيئًا إلا أننى

سوف أعيش مع أمى فى مسكن آخر وأن المطلوب منى هو الصبر على غيابها بعض الوقت قبل أن يحدث ذلك.

ويتحقق كل ما قاله لى بعد فترة من الانتظار.. وأنتقل إلى أمى فى مسكن جديد.. ويصبح زائر الصالون هذا عضواً دائمًا فى حياتنا الجديدة.. وأتعامل معه كما كنت أتعامل مع الرجل الكبير فى بيتنا السابق.. وأبى الآخر الذى يدعونى للخروج معه مرة كل أسبوعين.. وأدرك رغم صغر سنى أنه قد وافق على بقائى مع أمى و«زوجها» الجديد، لأنه قد تزوج ورفضت زوجته أن يضمنى إليه، وحسنًا فعلت لكيلا تحرمنى من أمى، وفى سن مبكرة أدركت أن ظروفى تفرض علىّ أن أكون «مؤدبًا ومطيعًا» مع زائر الصالون الذى أعيش معه.. ومع أبى الآخر كلما طلب أن أزوره وأن أشكره على ما يرسله لأمى من نقود كل شهر لتكاليف حياتى.

وشيئًا فشيئًا بدأت أتعود على وجود زائر الصالون فى حياة أمى وحياتى، وبعد عامين أصبح لى أخ صغير أحبه وألاعبه.. كما أصبح لى فى البيت الآخر أخت أخرى لا أراها إلا حين أزور أبى، وشيئًا فشيئًا أيضًا بدأت أحب هذا الرجل الذى تزوج من أمى، وأتقبل كل توجيهاته لى بصدر رحب وألاحظ أنه رجل طيب ويصلى ولا ينهرنى ولا يضربنى أبدًا ولا يصيح فى وجه أمى، وإنما ينفذ كل رغباته بالهدوء والكلام الطيب. كما بدأت ألاحظ أيضًا أن أمى تحبه

وترعاه وتقول لى عنه إنه تعويض ربها لها وتلفت نظرى إلى أنه يحبنى ويخاف علىّ، ولا يبخل بشىء من مطالبى. وبالفعل فلقد أدخلنى الرجل مدرسة لغات وأشرف على تعليمى وتربيتى وعلمنى أن أعرف ربى وأن أصلى الفروض فى أوقاتها ثم بدأ يؤمنى فى الصلاة ويرفع يديه بالدعاء بعدها ويطلب منى أن أفعل مثله وأدعو الله أن يحفظنى وإخوتى وأمى وأبى وجدى وجدتى من كل سوء.

وحين بلغت مرحلة المراهقة.. وبدأت أتمرد على بعض الأشياء.. كان هذا الرجل هو الذى يتدخل بينى وبين أمى ويصلح بيننا ويجلس معى فى الشرفة وينصحنى ويطلب منى أن أكون رفيقًا بها لأنها قاست الكثير.. فلا عجب أن أحببته حبًا من القلب لأنى وجدت لديه حنان الأب الحقيقى.. ولم أجد مثله لدى أبى الطبيعى الذى يكتفى بإرسال المبلغ الشهرى، ولا أجد حين أراه ما أتحدث فيه معه فيحل الصمت بيننا بعد تبادل السؤال عن الأحوال.

وبعد فترة أخرى، طلب أبى الآخر أن أنتقل إلى بيته لكى أكون تحت إشرافه فى هذه المرحلة الحرجة من العمر، ولم أرحب بذلك فى أعماقى لكن من كانت ظروفه مثلى لا يكون له حق الاختيار.

وانتقلت للإقامة معه ومع زوجته وإخوتى منه، وعانيت الأمرين من زوجة أبى التى عاملتنى من اليوم الأول على أننى ابن ضرتها وليس كأخ لأطفالها، وانزويت فى غرفة يشاركنى فيها إخوتى معظم

كليات الفن التى يفضلها لى ولم أكن أرغب فى ذلك، لكنى كتمت رفضى لكيلا أغضبه كعادتى معه ومع غيره وظللت عدة أيام لا أنام.. وأبى الحقيقى يسألنى عما بى.. ويُلح علىّ فى السؤال.. وأنا لا أبوح بشىء إلى أن رجع من الخارج ذات مساء وبادرنى متهللاً بأنه أقنع أبى بعد رجاء طويل وعناء شديد أن يدع لى حق اختيار دراستى.. وكانت ليلة سعيدة فى حياتى.. والتحقت بالكلية التى أرغبها بالرغم من احتجاج أبى وأمضيت سنوات الدراسة بتفوق وأبى الفعلى يشجعنى ويسعد بنجاحى ويحتفل به احتفالاً صاخبًا ويطلب من أبنائه أن يقتدوا بى، إلى أن تخرجت متفوقًا وأديت الخدمة العسكرية وعملت بوظيفة لائقة وبدأت أتطلع لما يتطلع له الشباب فى مثل سنى، وارتبطت عاطفيًا بزميلة لى وفاتحت بمشورة أمى أبى الذى أحمل اسمه فى رغبتى فى خطبتها.. فرفض ذلك

رفضًا باتًا وبغير أن يسمع أية تفاصيل قائلاً لى إن الوقت مبكر جدًا للتفكير فى مثل ذلك. ولم يقتنع بكل ماقلته له من أننى أرغب فقط فى تقديم الشبكة لفتاتى وأن أمامنا أربع سنوات إلى أن نتزوج وصارحت فتاتى بما حدث وأعفيتها من عهدها معى.. لكنها لم تقبل ذلك، وفوجئت بأمى بعد يومين تقول لى إنها اتصلت بها وأبلغتها استعداد أسرتها لقبول دبلتين فقط إلى أن تتحسن الأحوال، ووجدت أبى الحقيقى يدعونى للجلوس معه فى الشرفة كعادته كلما أراد أن يتحدث معى فى شىء مهم ويسألنى هل تحبها حبًا حقيقيًا؟ وأجيبه بالإيجاب فيقول لى: إذن لا تفرط فيها لكيلا تندم على ضياعها من يدك ولسوف يعينك الله سبحانه وتعالى على تكاليف الزواج، ثم يقول لى إنه حاول مع أبى كثيرًا لإقناعه بالتقدم لأسرة هذه الفتاة.. وأصر على الرفض فاستأذنه فى أن ينوب عنه فى أن يخطبها لى لأنه كما قال له «والد» أيضًا لى فلم يجب بالرفض أو الإيجاب وإنما قال له: افعلوا ما تشاءون لكنى لن أساهم فى هذا الزواج!

واتفقنا فى هذه الجلسة على أن نتقدم للأسرة بالدبلتين.. وفى الموعد المحدد ذهبنا إلى بيت فتاتى أنا وأمى وأبى الحقيقى وإخوتى منه، وفى الطريق فاجأنى الرجل الطيب بإخراج علبة مجوهرات قدمها لى سعيدًا وهو يقول إنها هديته لى فى مناسبة الخطبة، وفتحتها فإذا فيها أسورة ثمينة فصرخت من المفاجأة وطفرت الدموع

من عينى.. وخطفت يده من على مقود السيارة لأقبلها شكرًا وعرفانًا، وذهبنا إلى بيت خطيبتى وقدمنا الشبكة وسعدت سعادة طاغية.

وفى الأيام التالية سعدت بحياتى وخطيبتى وأمى وأسرتى، ولم يكدرنى شىء سوى إصرار أبى على ألا يزور أسرة خطيبتى أو يسمح لى باصطحابها معى فى زيارة لبيته لكى تتعرف عليه.

وبدأت أسرة خطيبتى تتحدث عن الشقة.. وأجبت بأنى أدخر نصف مرتبى وآمل أن أستطيع دفع مقدم لشقة صغيرة خلال ثلاثة أعوام.. كما أن أمى سوف تساعدنى ببعض مدخراتها من عملها.. وقد يساعدنى أيضًا أبى الطبيعى وهو قادر على ذلك، ورويت لأبى الفعلى وأمى هذا الحديث.. فإذا بأمى تكشف لى عن فضل جديد من أفضال زوجها على.. وهو أنه منذ عشر سنوات قد رفض بعد أن تحسنت أحواله المادية أن يسمح لها بإنفاق المبلغ الشهرى الذى كان أبى يرسله لى، وأصر على أن تفتح به دفتر ادخار باسمى فى البنك لأستعين به على أمرى بعد الزواج، وفتح لأختى وأخى منه دفترين مماثلين فى نفس الفرع، وواظب خلال السنوات العشر الماضية على وضع المبلغ الذى يرسله أبى لى فى دفترى.. وبالتالى فلن يكون حلم الشقة بعيد المنال إن شاء الله مع ما أدخره من مرتبى.. ولا يمكن أن تتخيل عمق ما أحسست به من حب وعرفان لهذا الرجل،

ولا يمكن أيضًا أن تتصور ما أصابنى من هلع صادق حين رجعت من عملى ذات يوم فعلمت أنه قد فاجأته وهو فى عمله أزمة قلبية نقل على أثرها للعناية المركزة.. فهرولت إلى المستشفى.. وأمضيت الليل واقفًا على باب الغرفة.. واعتصمت بالمكان ثلاثة أيام حتى تحسنت حالته ونقل إلى غرفة أخرى وقضيت معظم الوقت معه وشعرت بالفخر والاعتزاز وأنا أرى باقات كثيرة من الورد تنهال عليه وزوارًا عديدين يطمئنون على سلامته.

ومضت المحنة بسلام واستردت اطمئنانى للحياة وتعاقدنا على شقة لكى نتسلمها بعد عامين ودفعنا مقدم الثمن وواظبت على زيارة أبى الطبيعى مرة كل شهر فى بيته بالرغم من تحفظه معى وجفاء زوجته لى وبرود مشاعر إخوتى منه تجاهى، وبالرغم أيضًا من تمسكه رغم كل ماحدث بعدم زيارة بيت خطيبتى أو التعرف على أهلها.. وقد فعلت ذلك طلبًا لرضا ربى.. وأيضًا لأن أبى الحقيقى كان يوصينى دائمًا بألا أقطع صلتى بأبى مهما حدث منه، واقترب موعد تسلم الشقة وساهمت أمى بمدخراتها من عملها فى دفع المهر.. ورفض أبى الطبيعى المساهمة فيه بدعوى أنه لم يكن راضيًا عن الارتباط فى هذه السن المبكرة، وحددنا موعد الزفاف فى شهر مارس من هذا العام عقب تسلم الشقة وبدأنا نستعد للزواج، ثم فجأة أصيب أبى الحقيقى بنوبة قلبية أشد من الأولى ودخل العناية المركزة.

إلا معه. وأصبحت أخرج من عملى فلا أذهب للقاء خطيبتى كما كنت أفعل فى الأيام السعيدة وإنما أرجع إلى البيت.. وأتناول طعام الغداء مع أخى وأختى وأمى وألبى طلباتهم.. وأشرف على مذاكرة الإخوة.. ولا أخرج من المساء إلا إذا اطمأننت على كل شىء فى حياتهم.

ولقد مضت الآن خمسة شهور على وفاة «أبى» ولم تفارقنى صورته ولا رنين صوته الهادئ الرزين فى مخيلتى، وفى كل المواقف التى تواجهنى فإنى أتمثله.. وأتسمع صوته وهو ينحنى ويرشدنى وأعمل بما كان سيقوله لى لو كان على قيد الحياة.. وقد بدأت أمى تتمالك نفسها، وتقول لى إنها لم تسعد بالحياة وبالزواج إلا مع هذا

الرجل الطيب.. وهى تضع صورته وهو يحتضننى من ناحية ويحتضن أمى وأخوتى من الناحية الأخرى فى صدر الصالون وتفتح بيتنا لأهله وإخوته وأبنائهم وتستقبلهم بحفاوة وحب وتقول إنها تشم رائحته فى وجوههم.

ومازلت كما عاهدت هذا الرجل الطيب فى حياته أحرص على زيارة أبى مرة كل شهر ولا أحفل بتحفظه معى أو حتى تجهمه فى وجهى أحيانًا إعلانًا عن استيائه غير المفهوم أسبابه منى، كما لا أحفل أيضًا بالمشاعر العدائية الصامتة التى تكنها زوجته ضدى بلا سبب معلوم، وأعتبر هذه الزيارة واجبًا دينيًا أؤديه فى صبر وأرجو من أدائه رضا ربى ومغفرته كما علمنى أبى الحقيقى.

ولقد كتبت رسالتى هذه بعد أن قرأت رسالة الطفلة الصغيرة التى تطلب «أبًا» لها ولشقيقها، وأبوها الطبيعى يعيش فى بيته الجميل غير بعيد عنهما فى المكان، لكى أقول لمن لا يصدق إن فى الدنيا بالفعل رجالاً من هذا النوع يمكن أن يكونوا آباء حقيقيين لمن لم ينجبوهم وآخرين ليسوا آباءً لأبنائهم فى الحقيقة ولو كانوا قد أنجبوهم بالفعل من أصلابهم.. فأرجو أن تجتهد فى «إيجاد» أب آخر كذلك الأب الطيب الذى تربيت أنا فى أحضانه، لوالدة هذه الطفلة الحائرة.. وأرجو أن تعلم أن لك أجرًا كبيرًا بإذن الله إذا وفقك الله فى إغاثة هذه الطفلة وشقيقها..

ولكاتب هذه الرسالة أقول

كان أمير الشعراء أحمد شوقى يقول:

ليس اليتيم من انتهى أبواه
من هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له
أما تخلت أو أبا مشغولا

وبهذا المفهوم فما أكثر يتامى الحياة المعنويين الذين يكابدون أقدارهم مع أم تخلت أو أب مشغول.. وما أرحم السماء بمن تعوضه عن أبيه أو أمه بأم حقيقية أو أب حقيقى.. لم ينجبه من صلبه فيحدب عليه ويتحمل مسئوليته الإنسانية والتربوية بهذا القدر من الأمانة التى تحملها عنك هذا الرجل الطيب. ولا عجب فى أن تشعر عند رحيله عن الحياة باليتم الحقيقى والخوف من المجهول بعد أن انكشف عنك غطاء هذا الأب الأمين.

لقد تذكرت وأنا أقرأ رسالتك ما قاله الإمام المحدث ابن ماجه من أنه: خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه.

ومع أنك لست يتيمًا بالمعنى الحرفى للكلمة.. إلا أن رفق هذا الرجل الصالح حقًا وصدقًا بك قد حماك من كثير من غوائل اليتم المعنوى وآثاره السلبية نفسيًا وتربويًا على من يكابده. والآن فلقد جاء دورك ياصديقى لكى ترد الدين لصاحبه فتكون كما أراد لك أن تكون إنسانًا بمعنى الكلمة يرعى حدود ربه وينثر بذور الخير والعطف والرحمة والعدل فى مجتمعه المحيط به.

فلقد أعطاك أبوك الحقيقى المثل فى أن تكون إنسانًا يضىء الحياة بوجوده فيها.. ويزيد من مساحة الحب والعطف والرحمة والعدل الإنسانى فى الدائرة التى يتحرك فى مجالها. وعلمك كيف تكون «إنسانًا» يعطى للآخرين فيجنى ثمار عطائه لهم وللحياة حبًا صادقًا وعرفانًا مخلصًا له ووفاءً لذكراه. والوفاء بالدين من شيم الأوفياء وأصحاب المروءات، فأَدِ دَيْنَك على خير وجه للحياة ولهذا الرجل الطيب الذى أحبك ورعى حدود الله فيك، ولم يفرق بينك وبين من أنجبهم من صلبه.. وقم بواجب الأب الحقيقى مع إخوتك منه.. بل ومع إخوتك الآخرين من أبيك الطبيعى إذا احتاجوا ذات يوم إلى مساندتك لهم فى معركة الحياة.. فمن عرف قلبه الرحمة الصادقة لا يفرق بين الضعفاء حتى لو كانت جهالة الحياة قد أبعدت بعضهم عنه فى بعض الفترات.. والإنسان هو ما يفعله كما قال ذات يوم المفكر الفرنسى أندريه مالرو وليس ما يفعله به الآخرون.. ولقد لمست أنت كيف خلف «أبوك الحقيقى» وراءه كل هذا الأثر الطيب وهذه الذكرى

قدرًا منه وأعظم شأنا سبحانه وتعالى. واستفد بتجربة أبيك [illegible] في حسن معاشرة والدتك وفى الأثر العظيم الذى خلفه فى نفسها ووجدانها فى إحسان عشرتك لزوجتك حين يجمع بينكما عشكما الصغير، كما لا تنس أيضًا ماكنت تشعر به وأنت طفل حائر فرضت عليه ظروفه الخاصة أن يكون قليل المطالب، شاعرًا بالانكسار النفسى ويكتم رغباته الحقيقية اتقاءً لغضب الآخرين، ويحس إحساسًا مبهمًا ومؤلمًا فى نفس الوقت بأن من كان مثله لا يملك حق الاختيار أو حق التعبير عما ينطوى عليه صدره من رغبات وأمنيات، وحاول بكل ما تملك من جهد أن تجنب أخويك الصغيرين مرارة هذا الانكسار النفسى وآثاره السلبية الغائرة على الشخصية، فللصغار دائمًا ومهما كانت ظروفهم حق التعبير عن أنفسهم ورغباتهم وأمنياتهم بغير خوف من أثر ذلك على من يرعون شئونهم، ولهم أو ينبغى أن يكون لهم دائمًا ما يكون لغيرهم ممن يعيشون حياتهم الطبيعية من

حق الرفض والقبول وحق الاختيار. وبذلك تقدم للحياة إخوة أسوياء تجنبهم مرارة ما أحسست به أنت وأنت تقف أمام أبيك الطبيعى عاجزًا عن التعبير له عن رغبتك فى العودة للإقامة مع والدتك أو وأنت تكتم رغبتك الخفية فى الالتحاق بكلية بعينها توهمًا منك أن مثلك لا يكون له حق الاختيار. وخير الدروس هو ما نتعلمه من تجاربنا المؤلمة فى الحياة، وخير البشر هم من يسعون دائمًا لأن يجنبوا أعزاءهم والآخرين ما عانوا هم من قبل مرارته وخبروا قسوته عليهم حين كانوا ضعافًا حائرين.. والسلام.

المحتويات

كتب للمؤلف

الكتاب	النوع	الطبعة
١- أصدقاء علي الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧
٣- هتاف المذنبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٤- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠١
٥- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٦- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٧- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٨- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٩- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
١٠- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
١١- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
١٢- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٣- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٤- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
١٥- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٦
١٦- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
١٧- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠

١٨- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٩- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٠- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢١- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٢- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٢٣- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٤- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٥- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٦- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٧- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٢٨- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١
٢٩- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١

• كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية»

٣٠- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة ١٩٩٨
٣١- وقت للسعادة.. وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
٣٢- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ١٩٩٦
٣٣- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٣٤- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٣٥- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٦- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
٣٧- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٨- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠

٣٩- دموع القلب — قصص إنسانية — الطبعة الثانية ٢٠٠٠

٤٠- أرجوك أعطنى عمرك — مقالات وصور أدبية — الطبعة الثانية ٢٠٠٠

٤١- من المفكرة الزرقاء — صور ومقالات أدبية — الطبعة الأولى ٢٠٠٠

٤٢- الأرض المحترقة — قصص إنسانية — الطبعة الأولى ٢٠٠٠

٤٣- سلامتك من الآه — مقالات وصور أدبية — الطبعة الثالثة ٢٠٠١

٤٤- هو وهي والآخرين — قصص إنسانية — الطبعة الثانية ٢٠٠١

٤٥- حكايات شارعنا — الطبعة الأولى ٢٠٠١

٤٦- قالت الأيام — الطبعة الأولى ٢٠٠٢

٤٧- الرسم فوق النجوم — صور ومقالات أدبية — الطبعة الأولى ٢٠٠٢

٤٨- تحية المساء قصص إنسانية — الطبعة الأولى ٢٠٠٢